
النشر لمن يستحق
قصص
سبحة..
وكاس
محمد صلاح زكريا
كيان كورب.دار ليلى

١٦٢٤١٤

محمد صلاح زكريا

"سبحة وكأس"

كيان كورب للنشر والتوزيع

(دار ليلى)

الكتاب:

سبحة وكأس

المؤلف:

محمد صلاح زكريا

الغلاف:

محمد محمود

الإخراج الفني:

حسام سليمان

التدقيق اللغوي:

محمد عبد الغفار

★★★

إدارة التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★



رقم الإيداع: 11333/2012

© جميع الحقوق محفوظة.. وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع -دون موافقة كتابية- يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الترقيم الدولي: 978-977-5238-28-3

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)

البريد الإلكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

محمد صلاح زكريا

"سبحة وكأس"

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى



مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب) منذ ما يزيد عن 4 سنوات، قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) والذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها، والتي أصبح البعض منها كتابًا محترفين بعد ذلك، أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة، لمعوا من خلالها..

ومع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب – خاصة بعد ثورة يناير العظيمة– وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر، أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة، خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات، وإحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع، وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري، كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر، التي تخيف طرفيها – الناشر والقارئ – على حد سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت – وبشدة– اقتصاديا، ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال، فكرنا في حل بديل، هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرًا، إيمانًا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية، وحرصًا منها على استمرارها في دورها، وإيمانًا منها – كما عهدتموها– بالشباب الموهوب..

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها "النشر لمن يستحق" لفترة محدودة هذا العام، وعلى مراحل، وبشكل استثنائي، لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائجها، على رأسها:

– توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمالهم، وأيضًا عبر دار نشر لها اسمها ولله الحمد، مع كبار الكتاب.

– تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب، حيث يضمن عودة ما دفعه بعد عام واحد، مع هامش ربح خفيف، إضافة للغرض الأسمى، وهو أن يرى أعماله منشورة.

– تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتب، عبر شكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكية الفكرية، كما هي عادة عقود دار ليلى.

– توفير عناوين جديدة ذات قيمة للسوق المصري، الأمر الذي يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى عز وجل أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح، وأن ينال مشروعنا رضاكم، وكلنا ثقة بأن كثير من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع، ستصبح – مثل سابقيها– بإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدة.

الناشر

إهداء

إلى عمي الشهيد نقيب دفاع جوي «إسحاق علي زكريا» بطل حرب أكتوبر المجيدة وإلى كل شهداء مصر العظام عبر تاريخها النضالي المشرف..

إلى خالي الدكتور أحمد حسين زكريا - رحمه الله - داعيا المولى عز وجل أن يتغمده بواسع رحمته و يسكنه فسيح جناته..



مقدمة

بقلم الأديب والسيناريست: محمود طلعت

بسم الله ما شاء الله

إلى صاحب القلم الرشيق المتراقص..

إلى الأديب الصاعد الواعد..

إلى القاص المتمكن من أدواته..

إلى صاحب الخيال الجامح

إلى صاحب السرد المنمق..

إلى صاحب الدراما الإنسانية في كتاباته

إلى من أرى فيه الصورة و الحدث مكانا و زمنا..

إلى سيناريست يدق على الأبواب فى إصرار....

إلى الفنان محمد صلاح زكريا

سر قدما بالتوفيق (بسم الله ما شاء الله)



1- في انتظار المخلوع*

بين الواقع والخيال تتأرجح أحلامنا.. تتراقص مشاعرنا على مسرح الحياة.. يظل بريق الأمل طائرًا جريحاً يود الانطلاق في زمن خفتت أضواؤه وانفرط عقد أحبائه.

روتين حياته يلجمه.. يود كسر القيود والرقص في الأفق الممدود.. كل وظيفة لها مخاطر وإصابات متباينة.. وظيفته نضَّبت مشاعره بعد أن تحجَّرت مقلتاه.. عقيم الرحمة والشفقة.. عديم البسمة والشفعة.. عيناه بريق يشع خوفًا وتصلبًا أهوجَ.. ملامحه أشواك برية يفر منها القوي قبل الضعيف.. معالمه صحراء سوداء جرداء تقشعر منها الأبدان.. صبغت حياته بنهاية التعساء.. تهوي إليه الأنفس بما تحمله من خطايا يلقيها في بئر المنايا.. من أرواح الأنفس يكسب قوت يومه.. قدره سار دون أن يدري، في دهاليز أيامه يبعثر أحلامه.. مسار محتوم أن يعشق عمله.. اختيار بلا هموم.. ذكريات مهلهلة عن أحلام قديمة يقذفها بتراب النسيان كلما

* كتبت صباح أول يوم لمحاكمة الرئيس المخلوع مبارك

تذكرها.. نفور الناس يعانقه بابتسامة جنين خرج ميتًا من رحم أمه.

لا يعبأ بما يدور حوله.. ناس تغلي وأصوات تصرخ وتئن من واقع مرير.. يسمع ويشاهد الثورة تفور ويخرج المارد وتنقلب الأمور وتتغير الأوضاع بصورة ربانية بعد أن كانت دربًا من خيال.. يهوي الملك من عليائه وينطفئ بهاؤه، وتنهار مملكة ديكتاتوريته وتتجلى مستنقعات فساده وبؤرة قذارة ندمائه.. تلقي بهم الثورة خلف القضبان.. حتى الملك.. حتى الملك هكذا يصرخ لأول مرة تنبض في كيانه ذرة إحساس منذ أمد بعيد.. صرح البعض بأن مصير الملك الإعدام.. صاح فور سماعه ذلك: أنا للملك.. ومصير الملك لي.

تختلف نظرة الناس إليه.. ربما يكون بطلاً وصاحب الكلمة الأخيرة مع الملك المخلوع.. سيهوي في حصنه بين يديه، وما هي إلا معجزة أن يرى ويقابل الملك.. حلم قديم داعبه.. لكن أن يلقاه في قيوده وكظائر ذبيح بلا هالة العز والتكبر.. بلا جاه.. بلا مال.. بلا حرس.. أو مهللين وندماء سوء.. داعبته أحلام شتى.. سيرى الملك المخلوع يرتجف خوفًا ورعبًا ليتلقفه ويسحبه إلى مصيره، يلقيه في بئر المنايا.

في لحظة تجمدت فيها الأنفاس في الخارج تنتظر كلمته ليؤكد حقًا نهاية المخلوع.. أنا آخر من شاهد الملك حيًا.. أنا من كتبت آخر حرف في حياته.. خذوه من بين يدي جسدًا لا حراك به.. ليس بطلاً بل رسالته في

الحياة التي هجره الناس بسببها.. الآن الثورة ترفعه على رايات الفرسان وكأنه جيفارا هذا الزمان.

ما زال يتابع أخبار المخلوع.. ينتظر الحكم عليه.. الحكم الذي يجعل المخلوع يئول إليه.. جهز حبلاً متينًا يليق برقبة صاحب المقام المخلوع بلا تشفٍّ.. سيؤدي عمله وسيعامله كأي مذنب بلا تكلف أو محاباة.. بين يديه يتساوى الجميع، لكن فخره أنه سيأخذ بثأر المظلومين وأصوات الكادحين يأخذ حق الشهداء لتهنأ أرواحهم بأنها لم تذهب هباءً منثورًا، يمسح دموع أمهات ثكلى ضاعت زهرة فؤادهن في غياهب السجون بلا ذنب.. يواسي أنين الأبرياء.. يضمد جراح تعذيبهم في ظلمات المعتقلات.. يرسم بسمة على شفاه الفقر.. يعطي أملاً لساكني الخيام والقبور.. بحبله سيقتلع ظلمات عهد بائد.. سيزرع أرضًا جديدة وسيبعث فجرًا مضيئًا.. أخيرًا شعر بقيمته.. يفكر في الاعتزال لتكون نهاية المخلوع خير تتويج لرحلته ونهاية مشرفة ووسامًا يرفع هامته ويوطد كرامته.

ما زال الحلم يداعبه.. يقض مضجعه في انتظار حكم القاضي.. يخشى ما يقال من مهاترات عن مرض المخلوع أن يجهض حلمه الذي طال انتظاره، لكن يقين الثورة يلهب حماسه يشعل آماله ليظل حلمه ماردًا ينتظر أن يتحقق.



2- التعويض

خرج من غرفته يتكئ على عصاه، تطارده خواطر قاتمة.. هوى على أول مقعد صادفه بجسده المتهالك وقد بدت على وجهه مسحة من الحزن.. اعتراه وجوم شامل.. يفكر في أمر هذا الكابوس الذي زاره في منامه وحوَّل ليله إلى جحيم.. أدرك أن بناته في خطر.. قرر أن يسافر إليهن على الرغم من بُعد المسافات، لكنه لا يقوى على الانتظار والتقلب على جمر الأفكار.. صوت زوجته مقبل من الغرفة انتشله من دوامته.. وقفت أمامه تسأله عمَّا به.. نظر إليها مليًّا وضيق عنيف يهاجمه كأن مرجلاً يغلي في أعماقه.. فضَّل الصمت.. والقلق يكاد يخنقه، قالت له:

«أما زلت حزينًا على الأرض التي سلبوها منك لعمل طريق عمومي؟ لقد أعطوك تعويضًا يفوق ثمنها بكثير، ويمكننا من شراء ضعف مساحة الأرض القديمة».

اتجه بنظره ناحية النافذة وقال بصوت يملؤه الشجن:

«أريد زيارة بناتي.. أشعر أنهن في خطر».

«كيف تسافر وأنت مريض ولا تقوى على هذه المسافات الطويلة؟».

رد بصوت ممزوج بالدموع:

«بالسفر أهزم المرض، وبرؤية بناتي أقضي عليه».

حينئذ علا صوت مؤذن الفجر يخترق الظلمات.. توضأ وصوته الضعيف يتمتم ببعض الأدعية.. بعد أن فرغ من صلاة الفجر بدأ رحلة سفره الطويل يدفعه قلق غامض.. فالكابوس الذي زاره يؤكد له أن بناته في خطر.

الضباب يهيمن على الكون.. ينشر رداءه البغيض على الكون ليزيد في النفس الكآبة.. الطريق طويل والمشقة تزداد، لكنه يجاهد نفسه، يتنفس صبرًا.. يبحث عن نسمات أمل تعينه.

تبدد الضباب وفرَّ مذعورًا مدحورًا من جبروت الشمس التي ترسل أشعتها الحارقة لتزيد التعب تعبًا.. تلهب ظهور الكادحين ألمًا وغمًّا.

مع مطلع الظهيرة وصل إلى ابنته الكبرى.. على باب بيتها استقبلته بمسحة من الحزن.. جلست تحكي وتبكي بحرقة ومرارة.. ابنها مرض فجأة.. قال الطبيب إنه مرض خطير ولا بد من إجراء عملية في أسرع وقت لإنقاذ حياته.. العملية تحتاج لمبلغ باهظ، وزوجها أجير دخله محدود لا يكفي لإطعام أولاده.. لا تعلم أن والدها أخذ تعويضًا بالمبلغ المطلوب نفسه لإجراء العملية، لكنه دعا الله أن يشفي ولدها، وعقله مشغول.. لا بد أن

يعطيها المبلغ لكي يُشفى حفيده.. ودَّعها على أن يعود خلال أيام دون أن يفصح عمَّا بداخله..

مضى في طريقه إلى ابنته الوسطى.. مع نسمات العصر وصل لتستقبله أيضًا بالحزن والدموع.. زوجها يمتلك عربة يجرها حصان هي مصدر رزقه الوحيد.. فجأة مرض الحصان ومات منذ أيام ليجلس عاطلاً بلا مورد رزق.. أولادها يكاد الجوع يقتلهم والديون تكالبت عليهم.. كل ما يحتاجونه الآن نقود لشراء حصان حتى يعود زوجها لعمله ويطعم أولاده.. لا تعلم أن والدها أخذ تعويضًا بالمبلغ نفسه الذي طلبته لشراء الحصان، لكنه دعا الله أن يفرج كرب زوجها، وعقله مشغول.. لا بد من إعطائها مبلغ التعويض من أجل شراء حصان ليسد أفواه أحفاده الجائعة.

ودَّعها على أن يعود خلال أيام دون أن يفصح عمَّا بداخله..

مع غروب الشمس والكون يرتدي ثوبه الأسود لاستقبال الليل يمني نفسه بليلة قمرية ربما تعيد بهجته، وصل إلى ابنته الصغرى لتستقبله أيضًا بالحزن والدموع.. المرض اللعين داهم زوجها وأصبح عاجزًا لا يقوى على العمل، لم يعد لديهم مورد رزق، أولادها يكاد الجوع يقتلهم والديون تكالبت عليهم، الأطباء قالوا لا بد من إجراء العملية بسرعة حفاظًا على حياته.. تواصل بكاءها، تخشى موت زوجها، فماذا ستفعل لو مات؟ كيف

ستنفق على أبنائها؟

كل ما يحتاجونه الآن نقود لإجـراء عمليـة عاجلـة لزوجهـا حتـى يشفي ويعود لعمله لينفق على أولاده بدلاً من انتظار العون من الآخرين.

لا تعلم أن والدها أخـذ تعويـضا بـالمبلغ نفـسه الـذي طلبتـه لإجـراء عمليـة لزوجهـا، لكنـه دعـا الله أن يـشفي زوجهـا ويفـرج كربـه، وعقلـه مشغول.. لا بد من إعطائها مبلـغ التعـويض مـن أجـل إنقـاذ حيـاة زوجهـا وحتى لا يصبح أبناؤها أيتامًا.

ودعها على أن يعود خلال أيام دون أن يفصح عمّا بداخله..

عاد يتلمس طريقه في الظلمات بعـد أن غـاب القمـر في تلـك الليلـة.. يسير والحيرة تمزقه.. استقبلته زوجته بالسؤال عن أحوال بناتها..

رد والألم يعتصره والحيرة تخنقه:

«سأعود لزيارتهن خلال أيام ومعـي مبلـغ التعـويض، لكـن لا أدري أي واحدة سأزورها أولاً!!».

3- لن أعود

تأمل نقوده وهو يعدها.. كان يتمنى أن تظل معه، لكنه مجبر الآن على إنفاقها بعد أن ظل سنوات طوال ينميها ولا يهنأ بنومه إلا وقد ألقى نظرة عليها يطمئن على سكونها.. معها يشعر بالدفء والسعادة.. كلما أضاف إليها شعر بنشوة غريبة تجتاحه.. كان يحرم نفسه من أشياء كثيرة حتى تزيد وتتضخم.. مع مطلع أول كل شهر يقبض راتبه ليضع معظمه هنا في هذا الصندوق.. لم يكن يتصور أن يأتي يوم يأخذ من هذه النقود، لكنه مجبر على تنفيذ وصية والدته التي طلبت منه – وهي في سكرات الموت – أن يتزوج ولا يعيش وحيدًا؛ فهو لا يأمن غدر الزمان ويحتاج لأنيس وأولاد فيما بعد يستند عليهم عندما يتقدم به العمر.

بعد رحيل والدته بدأ تنفيذ الوصية.. بحث عن عروس بمواصفات خاصة.. سأل الأهل والمعارف حتى استقر به الحال على خطيبته التي يستعد الآن للذهاب معها لشراء الشبكة.. لم يكن يتصور أن الزواج يحتاج كل هذه النفقات.. لكن ما يثلج صدره أن زوجته تعمل مدرسة لغة إنجليزية ودخلها كبير جدًّا من الدروس الخصوصية وكان هذا أقوى سبب لكي يقبل

أن يتزوجها.. فهي تمتلك قدرًا محدودًا من الجمال وسنها كبيرة، لكن دخلها الشهري يفوق دخله بأضعاف.. رفض في البداية موضوع الشبكة بعد أن علم قيمتها الباهظة، لكن إصرار أهلها جعله يوافق على مضض.. الآن يُخرج نقوده بكل سهولة، التي ظل سنوات يدخرها وفي لحظات يدفعها لشراء تلك الشبكة.. وضعها في جيبه متحسرًا على أمل تعويضها بعد ذلك من الدروس الخصوصية التي تحترفها خطيبته.

في الموعد المحدد وصل إلى منزل خطيبته ليصطحبها مع والديها إلى الجواهرجي لشراء الشبكة.. أشار والدها بأن يركبوا «تاكسي»، لكنه صاح بأن ذلك تبذير وإسراف، وأن الأتوبيس سيؤدي الغرض نفسه ويصلون لهدفهم.

وصل الأتوبيس كعادته مزدحمًا لينحشر ومعه خطيبته ووالداها داخله وسط هذه الأجساد المتلاصقة.. تحسس جيبه ليطمئن على نقوده، لكن فجأة اصطدم به شخص غريب بحركة مريبة يحاول إيجاد طريق له وسط هذا الزحام نهره وكاد يتشاجر معه، لكن الرجل اعتذر وأسرع بالنزول من الأتوبيس.

في محل الجواهرجي خطيبته تختار الشبكة بمساعدة والدتها حتى جاء موعد الحساب.. تحسس جيبه.. صُعق عندما وجده خاليًا.. كاد قلبه

يتوقف.. يفتش في كل جيوبه.. الأرض تدور به ويكاد يصرخ: أين مالي؟!

تذكر هذا الشخص الغريب الذي اصطدم به.. اجتاحتـه آلام لا حـصر لها.. حاول كتمها.. سألوه عمَّا به، لكنه حـاول أن يخفـي ارتباكـه نافيًـا أن يكون شيء قد حدث.. فكر ماذا يفعل.. طلب من الجواهرجي أن يعرض علـى خطيبته موديلات أخرى حتى لو كانت غالية.. لكن خطيبته قالـت لـه إنهـا اختارت، لكنه قال لها: لا يهمك أي نقود.. اشتري أغلى شيء. ثـم اسـتأذن أن يخرج على أمـل العـودة وهـو يقـول انتظرونـي.. دقـائق وسـأعود.. خـرج مسرعًا يسير على غير هدى يبكي على ضياع نقوده يتمنى لو مات ولا يحدث أن تضيع نقوده.. هكذا بعد سنوات من الادخار يسرقها لص في لحظة.. تذكر والدته.. لسان حاله يقول عذرًا يا أمي لن أنفذ وصيتك؛ فقد ضـاعت أمـوالي.. تـذكر خطيبتـه وأهلـها وهـم ينتظرونـه في المحـل، أسـرع الخطـى هائمًـا كالمجنون لا يستقر به حال ولسان حاله يقول: لن أعود.. لن أعود.



4- الشهيد ومدينة الصمود

لم يكن يومًا عاديًّا كسائر الأيام.. لأول مرة يزور تلك المدينة الباسلة التي طالما سمع عن بطولاتها وصمود أهلها الشجعان في وجه العدو الغاشم بطائراته وقنابله لتصبح المدينة رمزًا للصمود والشجاعة والتضحية والفداء.. في شوارعها يسير.. تزكي أنفه رائحة المجد والعزة والكرامة، الجدران الصامتة تبدو لو كانت تود أن تسرد وتحكي تلك البطولات الخالدة، على الرغم من أن معظم البنايات حديثة لكن أرضها لم تتبدل وسماءها لم تتغير.. سرح بخياله عندما كان تلميذًا والأستاذ مصطفى يشدو في الإذاعة المدرسية القصيدة الخالدة:

«يا بيوت السويس.. يا بيوت مدينتي.. أستشهد تحتك وتعيشي انتي».

على شاطئ الخليج وقف يتأمل مياهه تنساب في هدوء تحتضن الجبل على الضفة الشرقية تتلألأ على قمته أشعة الشمس.. هنا وقف أجدادي يرسمون بطولات النضال والصمود.. هذه الأرض ارتوت بدمائهم الزكية.. هذه السماء شهدت عظمتهم في الإقدام والتضحية.. هذا الأفق

الفسيح تزلزل بندائهم: «الله أكبر.. الله أكبر».

هنا أرض النصر.. علت راية الوطن بسالة أبنائه.. هنا استشهد عمي بنيران العدو الغاشمة الذي انكسرت رايته وتحطمت أسطورته واندثرت بطولاته الزائفة لتعلو راية الحق وتعود الأرض لحضن الوطن.

كان يود البقاء طويلاً، يتمنى ألا يبرح مكانًا سُطِّرت فيه أروع البطولات في صفحات التاريخ.. حانت ساعة الرحيل، فقد انتهت مهمته في توديع والده الذي ركب الباخرة قاصدًا الأراضي المقدسة.

السيارة تطوي الأرض، فالطريق طويل والصحراء تطوِّقه من كل مكان والشمس كعادتها تفرض جبروتها بقسوة..

لفتت نظره لوحة قديمة مكتوب عليها: «مقابر شهداء الجيش الثالث».

تذكر عمه الشهيد.. والده قال له إنه دُفن هنا، لكن يا ترى هل ما زال قبره موجودًا؟ وهل اللوحة الرخامية التي وُضعت عند دفنه والتي تحمل اسم الشهيد ورتبته وتاريخ وفاته ما زالت صامدة؟

فكر مليًّا ثم شهق فجأة.. طلب من السائق التوقف.. دهش السائق وهو يسأله عن سبب طلبه الغريب، لكنه فتح باب السيارة واتجه ناحية

المقابر التي بدت على بُعد بسور كبير يطوّقها دون أن يلتفت أو يطفئ فضول السائق.

على الباب استقبله مجند يحمل اللون المصري الأصيل بابتسامة بائسة.. سأله عن رتبة عمه؛ فالمقابر قُسِّمت حسب الرتبة.. سار معه حيث أشار: هنا مقابر رتبة النقيب.. سار يقرأ أسماء الشهداء بفخر وانبهار.. كل مقبرة عليها لوحة رخامية تعلن عن صاحبها البطل.. صمت القبور يعلن أنهم أموات لكنهم «أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ».. بحث عن قبر عمه والمجند يساعده يستعرض معه الأسماء حتى صاح: ها هو.. تملكته مشاعر الرهبة والفخر والتبجيل.. انحدرت دمعة الزهو التي طالما انتابته من قبل وسط أقرانه عندما يذكر اسم عمه الشهيد.. قرأ اللوحة الرخامية مرات بصوت عالٍ كأنه يخاطب الأبطال في قبورهم فخرًا: ها هو عمي البطل الذي ضحى بحياته فداء لوطنه.. قرأ الفاتحة وأخذ يتمتم ببعض الأدعية.. كان يود البقاء، لكن السائق كان يقف على الباب ينادي وهو يشير إلى الساعة.. وقف يودّع عمه.. أنا ابن أخيك.. جئت إلى الدنيا بعد استشهادك بسنوات.. بطولاتك وسام على صدري.. أقابل الناس أسمع منهم كلمات التبجيل لك.

تحرك في اتجاه العودة لكنه وقف يلقي نظرة على المقابر.. علا صوته يخترق صمت القبور.

«أيها الشهداء.. هنيئًا لكم تعيشون في قلب كل وطني رمزًا للتضحية والفداء.. حررتم وطننا الغالي بدمائكم وعند ربكم تنالون خير الجزاء»..

على الباب وقف يشكر المجند بفرحة طاغية.. يود لو فعل أي شيء ليكافئه، لم يجد سوى كيس في يديه به بقايا سندويتش فول أعطاه للمجند.

ليس معه سوى هذا، لكنه يساوي الكثير؛ لأنه من مدينة البطولات.. أرض التضحية والفداء، لكن المجند تقبله بابتسامة رضا.

عاد تحمله نسمات السعادة والفخر.. حقق أمنية عسير أن تتكرر؛ فالمسافات تقف حائلاً دون أن نحقق كثيرًا من رغباتنا.

5- استمارة 6

ضاق الطريق وانطفأت كل الأنوار.. حتى الشمس أبت أن تعلن عن نفسها وانزوت خلف سحابة تتشح بالسواد.. وغاب العقل وتاه الفكر وازدادت حيرة الأقدام في أي اتجاه تسير.

فقد تساوت كل العناوين بعد أن صارت الحياة أرقًا دائمًا وسوطًا يلهب ظهورنا.. يزيد من أوجاعنا.. هكذا حدث نفسه بعد أن خرج لتوه من الشركة إثر خلاف مع مديرها، وهي أول مشكلة تحدث؛ حيث لم يمضِ على تعيينه بعقد سوى شهرين.

وجد نفسه وسط بحر شاسع أمواجه لا ترحم.. غرقت أحلامه وركب قارب اليأس مع أقرانه، وعندما لاح الأمل بإعلان صغير في إحدى الصحف، أسرع وقدم أوراقه وناله طوق النجاة بموافقة الشركة، وغمرته السعادة؛ فقد أصبح له مكان في الحياة.. لكن الآن ضاع كل شيء وعاد من جديد يصارع الأمواج ويبحث عن قارب اليأس ربما يجد له مكانًا فيه.

كان يتمنى أي شيء إلا أن يحدث ذلك.. يسير على غير هدى.. الذاكرة تعود به للوراء وأحلام الجامعة كطيور السعادة ترفرف حوله، ظنًا منه أن الحياة بلسم تفتح ذراعيها لكل من يناديها.. لكن خاب ظنه عندما

تخرَّج وفكر في البحث عن عمل.

بعد أن ذاق الويل في البحث عن عمل، لكن جبروت المدير لا يـرحم، فقد أخرج له فورًا استمارة 6 التي سبق أن وقَّع عليها قبل تسلمه العمل.

سار متثائبًا تطارده نيران الحيرة ولظى تساؤلات تناوشـه.. تمزقـه مشاعر اليأس.. صحراء مقفرة تطوقه.

عاد إلى منزله.. ألقى بنفسه على وسادته لعل طاقـة غليانـه تخلـد.. جافاه الوسن وأمعن في الهجر.. صمت مطبق في عينيـه وظلمـة الليـل تـستبد بمشاعر الحزن والألم.. تتزين له.. تراوده كي يستسلم.. رغبة المقاومة بدت صبابة أحلام قديمة.

يوم مفاجئ ألجم حاله.. لم يكن يتصور أن الخطر قـد يعـود بجبروتـه كي يهدم أحلامه.. خرج لعلـه يجـد متنفسًا.. لا شـيء يفعلـه سـوى احتـساء فنجان من القهوة على المقهى القديم الـذي شـهد لحظـات يأسـه نفـسها وكأنـه حديقـة للقنـوط وملجـأ للخنـوع.. الأسـئلة في ذهنـه تـضطرم.. تـدور في فلـك الذكريات.

تبدو الحياة أسطورة يونانية قديمة أو مجرد ترانيم لإله قديم.. تفـر أحلامه إلى تابوت الأقدار.. حتـى الرضـا بـالمكتوب يـأبى أن يـضعه في إطـار الصورة.. جسده المحموم ينتفض كلما تذكر ما حـدث.. ثمـة خـلاف بـسيط

مع صاحب العمل صار وجعًا لذنب لم يقترفه.. عليه أن يعود إلى نفق البحث عن عمل.. ربما خرج بوظيفة جديدة تليق بمؤهله كحامل بكالوريوس هندسة وربما تاه في النفق ودار فيه على غير هدى..

عاد إلى منزله غارقًا في سكرات الآلام والهموم..

«دع القلق وابدأ من جديد».. هكذا استقبلته أمه.. لا تزال ترضعه أملاً وصبرًا.. على الرغم من أن الحياة تعانده يود أن يعانقها.. جنين الأمل تجهضه صرخات الخوف.. نام على ابتسامة أمه.. يفر من ظلمة الليل.. يكابد وهن القنوط.

من رحمة الخالق بعباده أن جعل بعد الليل وظلمته يأتي نهار ينشر نوره.. يوزع آمالاً جديدة للبؤساء وندماء اليأس ومن أغرقهم الإحباط.. يخفف الآهات يداوي الأنين.

خرج يبدأ رحلة من البحث عن عمل.. يحمل أوراقه.. ينفض عن كاهله وهن الأفكار.. بدت فحولة الشمس تطارد ماردًا اسمه الضباب.. كلمات أمه شراع سفينته يواجه الأعاصير.. ربما يصل إلى مرفأ تترعرع فيه أحلامه وربما تكسرت أمانيه.. عليه أن يرسم خطوطًا من الصبر يلونها بعزيمته..

ربما... وربما...



6- عاشق القمر

وهبتها حبي وأنا لا أدري أن القمر أرخى سدوله ورحل بلا أمل.. ضاقت به الأرجاء وأغلقت الأركان.. حتى بنت السلطان خاصمت نافذتها ولم تعد تناجي القمر.. من حقه إذًا أن يمضي بلا عنوان.. لحظتها عشت الحب لأرى شماتة الألوان واستهزاء أشباه الزمان.

ما ذنب من أحب في زمن بلا قمر؟ هل للحب ميعاد؟! سافرت بفؤادي أحمل الأمل والرجاء تطاردني رياح الفراق، من كأس عنترة وقيس أواصل رحلتي على الرغم من الأهواء وأرى الهوى يترنح أعطيه قبلة الحياة، لكنه ما زال في انتظار القمر أو القدر.

مسكين تراوده آهات اليأس.. جافاه الوسن.. خاصمه الصمت.. هي بجانبي تجاهد.. تقنع نفسها بأمل ربما بدا زافًا.

طيور الهوى أنهكتها طلاسم الانتظار بعد أن كانت صفحات القمر مرتعًا لأحلامها البكر.. صوت يصيح: اقتلوا الليل أو اطرحوه في زمن آخر.. لكن هل للقمر وجود من دون ليل؟! وهل للقمر نكهة من دون نسمات المساء؛ حيث تعلو ترانيم السهر وصخب العشاق؟!

تبقى مراسم اللوم تطارد شعراء القمر.. منحوه مقاليد الحب، وصار العاشق أسيره.. اليوم نبكي في الظلمات.. نتحسر على أسطورة عنترة ولوعة قيس وشجاعة شمشون وبراءة هابيل ودهاء كليوباترا، عاشوا في زمن القمر، رقصوا على صفحاته ومن بدره تجرعوا كل الكئوس ما بين الأمل والألم.. الحنين والفراق.. السعادة والشقاء.. أما الآن فزمن بلا عشاق، قلوب جرداء مضت تبحث عن قمر جديد.. ما زالت بجانبي تلملم آمالها.. تنتشل أحلامها من طوفان الدموع.. أرى وجوهًا خُلقت من أجل الأحزان، مبتور منها ملامح الابتسامة.. وهل تكفي جرعات الصبر على الصبر؟ معه رحل كل شيء..

أيها القمر عد إلينا.. عد إلى قلوب ملأها القحط والجدب.. انزع العبوس من الوجوه. هي ما زالت على شوك الانتظار تتقلب، وطيور الهوى جفت مقلتاها، في شباك صياد القنوط تقوقعت.. ما بين الأمل والرجاء أترنح، ما زال سفري طويلاً.. في ليلة ليلاء ربما أثير شفقة الزمان فينتزع جحود من نبحث عنه لتعود حواديت القمر ترسم أساطير العشاق.

وهل معقول أن يدع الزمان نفسه يعيش بلا قمر؟!

7- أحلام مقبلة *

لا تسألوني عن الزمان والمكان، فقد قررت عدم البقاء في هذا البحر.. سئمت من تغيراته المفاجئة والمتقلبة.. يئست من إصلاحه، فالأحوال تزداد سوءًا.. أبحث عن بحر جديد لم تصله عدوى الانهيار وما زال نهاره يفيض حبًّا وعطاءً.

في زمن ما ومكان ما.. ولي أمر المدينة سلطان ضعيف الشخصية يركن للخمول وعدم الاكتراث بشئون الرعية.. زادت القلاقل والاضطرابات في عهده بعد أن غاب العدل وانعدم الأمان ورفع بعض العلماء راية العصيان، مطالبين بعزل هذا السلطان ومحاكمة وزيره وقائد جيشه لما ارتكباه من حماقات وصارا مركز قوى يسيطران على عقل الخليفة.. يمارسان الظلم والبغي في حق الأبرياء.. توحشت رغباتهما فصارا يتحكمان في كل أمور الخلافة وشئون الرعية.. انتشر الفقر والعوز بينما نمت ثرواتهما وكنزا الذهب والفضة.. أنين ونشيج الرعية يعلو، ساخطين ناقمين على تلك الأوضاع، لكن السلطان وندماءه في غمرتهم ساهون..

---

* كتبت مساء 2011/1/24.

يسكنون القصور، لا يشعرون بساكني القبور.. بطونهم عامرة، نسوا الأفواه الجائعة.

الخطباء على المنابر عاجزون عن الكلام، يخشون زبانية السلطان ووزيره وقائد الجيش، ما زال حديثهم عن الجنة والنار لم ينتهِ.. يهربون من الوقوف تحت شمس الحقيقة.

شاب دفعه حماسه وثار في وجه الناس بعد صلاة الجمعة على صمتهم على هذا الظلم البين، والله لا يغير قومًا حتى يغيروا ما بأنفسهم.. تحمس البعض وخشي آخرون من العواقب وصدق حدسهم كانت وخيمة.. اعتقلوا الشاب بتهمة العيب في ذات السلطان المنزهة.. من بين أهله سلبوه ولم يُعرف عنه خبر ليكون عبرة.

توارت الدموع تنعى هذا الشاب تدعو المنتقم أن ينتقم.. صارت المدينة هدفًا لأعدائها يبثون سمومهم.. انتهزوا فرصة وهن النظام الحاكم لنشر المفاسد..

انتظر أهل المدينة رد فعل السلطان كما كان يحدث في عهد أجداده..

لكن الزمان غير الزمان والسلطان غير السلطان والقلوب تبدلت والعقول تجمدت والرغبات توحشت..

الرعية تبخر حماسهم وخمل بركان غضبهم وانفضوا إلى البحث عن لقمة العيش.. شعارهم: «للبيت رب يحميه».

زادت الأوضاع سوءًا وضجر البعض من الصمت ورفضوا نصيحة «السكوت أفضل».. وكانت ذروة ذلك في يوم جمعة.. اجتمع الناس في المسجد لسماع الخطبة والصلاة.. عقولهم مشغولة بتوافه الحياة ينشدون من الخطيب أن يختصر وينتهي سريعًا حتى يعودوا لخوضهم؛ فالكلام لا جدوى منه.. ملوا من الحديث عن العبادات وعذاب القبر وجهنم والجنة وقصة أصحاب الكهف وهلم جرا.. صعد الخطيب يدفعه حماس غريب لم يعهده من قبلُ؛ فخطبة الجمعة صارت عنده روتينًا أسبوعيًّا، مجرد آيات وبعض الأحاديث النبوية تتخللها كلمات إيمانية بسيطة؛ فهو يعلم أن الناس أمامه صنفان لا ثالث لهما: صنف لا يروق له النوم إلا على خطبته، وصنف يتعجل الوقت وإن تأخر تشاجروا معه بعد الصلاة على الإطالة، حجتهم أن منهم المريض، والرسول – صلى الله عليه وسلم – لم تكن خطبته تتجاوز ربع الساعة، فلماذا يتفلسف ويطيل؟ حاول الخطيب أن يقول خطبته التي جهزها، لكن لسانه لم يطاوعه.. شعر بفوران يجتاح جسده.. نسيم غريب يشبه الرياح الهوجاء فبعد أن حمد الله وصلى على رسوله الكريم انفجر لسانه قائلاً:

لماذا أنتم صامتون أمام هذه المفاسد وذلك الظلم الذي تجاوز كل الحدود؟ لماذا تفرطون في حقوقكم؟ أليس منكم رجل رشيد يثور ويقف في وجه الظلم والطغيان؟ أين النخوة والعزة والكرامة؟ لن يمحو الله الظلم إلا بسعيكم نحو ذلك، والباطل يحتاج لقوة واتحاد كي يهزماه ويعيدا الحق!

استيقظت العيون وانتبهت العقول وتباينت الأفكار وفُتحت الأفواه من هول المفاجأة، بل راح البعض يسلِّك أذنيه ربما أوهام ناوشته أو أحلام الوسن تؤرقه..

لكن الخطيب استمر في ثورته وكلماته الجريئة مهاجمًا السلطان وندماءه وكاد البعض يندفع إليه ليسد فاه خوفًا عليه من عيون السلطان، وآخرون يهزون رءوسهم بحسرة وأسى اعتقادًا أن الخطيب أصابه مس من الجنون.

وختم الخطيب خطبته قائلاً:

«لا أدري كيف خرجَت هذه الكلمات وتجرأت على البوح، لكنني وأنا أصعد درجات المنبر شعرت لأول مرة بالشجاعة ونُزع من صدري الخوف الذي كان يكبل لساني من قبلُ، وقررت أن أنصحكم وأحمد الله على أن مدَّني بهذه القوة وأعلم يقينًا أنني لن أقف مرة ثانية على هذا المنبر، بل

ربما لا تشاهدونني بعد ذلك، وتعلمون طبعًا السبب، لكنني الآن أشعر بالفخر بأن ختمت رحلتي في الإمامة والخطابة بكلمة حق ونصيحة صادقة، فانهضوا واستيقظوا من سباتكم، فأنتم أقوياء وباتحادكم في مواجهة الظلم قادرون على صنع المعجزات.. اللهم بلغت اللهم فاشهد».

خرج القوم من المسجد لا حديث يدور إلا عن الخطبة وجرأة الإمام.. اختلطت الأصوات وتباينت التعليقات وتفاوتت التحليلات وتأرجحت التخمينات، لكنهم اتفقوا على المصير الأسود الذي ينتظره، لكنهم شعروا بالفخر من قوته وجرأته اللتين افتقدوهما ورضوا بالجبن والتخاذل والهوان.

حلَّ الليل بجبروته ينشر الظلمة كعادته، وباتت الشمس على نار الاشتياق تنتظر بزوغ الفجر حتى تشرق لترى ماذا حل بالمدينة من تغير أم يظل البحر سقيمًا عقيمًا؟



8- قبل الرحيل

قابلتها وعلى وجهها مسحة من الحزن.. سألتها عمّا بها.. أدركت أن الصمت صار عنوانها والرحيل بدا غايتها فقلت لها:

لا تدعي البكاء يطاول خصلات شعرك، ولا تسكبي الأحزان على شعرك، فاليوم قد يكون هو كل عمرك وغدًا تجف منابع سحرك وتتلاشى بساتين عطرك وتضيع معالم سفرك..

إذا كنت تودين الرحيل فلا تدعي القدر ينسج ثوب الفراق.. كيف ترحلين والفؤاد جعلك نورًا مبصرًا وزهرة للفؤاد تنشر عطرًا؟! فكيف تهربين من بين يدي وقد طرت أرجاء الأفنان ومن بين ثنايا النور حملتك على جناحي الصغيرين ورأيت في عينيك لغزًا مسحورًا؟ عسير أن أفك تلك الرموز.. نقوش تتوارى كبنات الحور.. وسر الكلمات لا تبوح به السطور.. فكيف تنسجين خيوط الأمل ثم ترحلين وتدعين لقلبي العلل؟ لا تدعي الفراق يدك حصون بستاننا ولا تنصتي لنداء الغيب فنحن أدرى بحالنا..

علامَ صمتك؟ كأنك لا تبالين بشوك الفراق يغزو بستاننا وأشجان الفراق تقطع أحشاءنا وجيوش الفراق تدمر قصور أحلامنا.. بأيدينا أن نبقى هنا في أرضنا..

لا نفترق.. لا نتألم..

ما زلنا للفراق نسعى، والقدر يدعونا أن نبحـر لـشواطئ الاشـتياق.. إذا كنت قد اخترت الفراق طريقاً فلا تعودي بثياب الندم؛ فالقـدر لا يـرحم من فرَّط في النعم وخان عهد القسم..

حبيبتي..

أمسكي تلك الوردة.. أخرجي من بين يديك الحنان واسقيها.. دعـي ينابيع الحب تغمرها، وأشعة الشمس تزيد نورها.. فهي غدًا الأمـل وملجـأ السلوى، ومزار لكل عشاق الهوى.. وصحبة للمبتول والمهموم..

حبيبتي.. ها هو نسيم العشق يداعبنا وأنياب الهجر تراودنا..

فأيهما تختارين؟

وعلامَ تحتارين؟

فأنت بالعقل زُوِّدتِ فماذا أنت اخترتِ؟

لا تدعي الزهور تذبل وتحترق، فهي لا تـستحق.. دعـي الـذكريات تنطق بألوان السعادة التي عشناها وبساتين الضياء التي شيَّدناها.. فـاحكمي عقلك وعودي..

لا تدعي تلك العواصف تقلـع جـذور عـشقنا.. فأنـت حـبي ولـن أدع حبي يفلت من بين يدي!!

9- سبحة وكأس

يدرك عشاق الشتاء روعته عندما يتجلى في شوارع الإسكندرية، يعزف سيمفونية كلاسيكية مع تدافع الأمواج و صخب البحر و نقاء الكورنيش من مريديه و تلك النسمات الباردة تتراقص بخفة و رشاقة كفتاة باليه بارعة .. ظلمه البحر تعانق ظلمة السماء في حفلة تنكرية .

داعبتني هذه الخواطر في تلك الليلة من ليالي الشتاء و رذاذ المطر ينعشني كحبات لؤلؤ ..

و الأمواج تعانق الأضواء لوحة تشكيلية غامضة يحتار الرائي في كشف خباياها ..

ما بين محطة الرمل و المنشية تتمايل قدماي كعاشق يبحث عن معشوقته.. أتوقف أشاهد النصب التذكاري للجندي المجهول أمامه يقف عسكري منتصبًا بكل حزم و جديه تحسبه من الجمود تمثالا.. أبتسم .. عيناي تطالع الساعة حتى لا يغرقني عشقي و غرامي بما حولي و أنسى موعدي مع هذا الأديب السكندري الكبير الذي اتصلت عليه منذ أيام بوساطة من صديق مشترك كي أعرض عليه بعضًا من قصصي منتظرا رأيه

وتوجيهاته .

اللقاء في إحدى مقاهي محطة الرمل الشهيرة لكن مازال في الوقت مجال كي أشبع رغبتي في التمتع بشتاء الإسكندرية .

لكن آذان العشاء داعب أذناي فاتجهت لأحد المساجد أصلي وبعد أن فرغت من صلاتي قام شاب ملتحي يخطب بصوت عال حاد.. عن سماحة الإسلام و قيم العفو و التسامح.. بجواري رجل وقور تداعب أنامله سبحة و شفتاه تتحركان في صمت ..

خرجت إلى المقهى لأجد الكاتب في انتظاري.. لأول مرة نتقابل.. ترحيب حار و حوار ودي غطى على برودة الشتاء و صخب المكان.. تعجب و اندهش عندما عرض عليَ سيجارة و أنا بأدب جم امتنعت لأني لا أدخن.. زادت دهشته عندما علم أنني لا أتعاطى أي مكيفات أو مسكرات.. الشاي فقط كان ردى.. سخر و ضحك كأني طفل أمامه.. حدثته عن نفسي و قرأت له بعضا من قصصي . انبهر و مدح فيما سمعه طالبا أن اقرأ مزيدا من كتاباتي..

لمحت عيني رجلاً يدخل المقهى.. نظرت بإمعان إليه.. تذكرته انه الرجل الذي كان يصلى بجواري ويمسك سبحه.. يجلس على مقربة منا.. صبى المقهى يحضر له شيشة.. يشرب و يخرج دخانا بلذة و متعة.. نظرت إلى أنامله الخالية التي لا تحمل السبحة.. انتبهت من دهشتي على صوت

الكاتب وطوفان دخان سيجارته يغرقني يطلب أن اقرأ له المزيد من كتاباتي.. قرأت و عيني تتأرجح بين الورق و سحب الأدخنة سواء من سيجارة رفيقي أو الشيشة من بجواري و الضوضاء الصاخب حولي و أصوات قرقرة النراجيل.. مر وقت لا أدرى مدته لكنني في غمرة السعادة و أنا أرى في عين الكاتب ملامح الإعجاب و الثناء.. يخرج الرجل بعد أن انتهى من الشيشة، أتابعة.. أراه في الشارع خلف زجاج المقهى يتحسس جيبه يخرج السبحة.. يواصل سيره حتى يتلاشى عن ناظري .

دعاني الكاتب لكي نخرج نداعب نسمات الشتاء.. حكى عن نفسه و رحلته مع الأدب و الإبداع .

فوجئت به يدخل إلى حانة في إحدى أزقة المنشية قائلا " عاوز أشرب كاس "

لأول مرة أخطو هذه الأماكن.. شاهدتها في الأفلام أما في الواقع فلم أكن أتصور يوما أن أدخلها.. عالم غريب.. تتعدد الوجوه.. تتفاوت الأعمار.. تتباين المشاعر بين سعادة و تجهم.. رفضت تناول أي شيء.. ضحك ساخرا.. بدا خبيرا في أنواع الشراب.. مع كل رشفة من الكأس يحكى عن ذكرياته مع كبار الأدباء و الفنانين .

حديثه شيق لكنني لا أشعر بالراحة مع السكارى.. الساعة تقترب من منتصف الليل خرجنا.. افترقنا على وعد بلقاء آخر.. مررت بشارع

المنشية.. الباعة الجائلون يستعدون للرحيل و حمل بضائعهم بعد يوم شقاء.. أصوات عالية و شجار تثير فضولي أتجه نحوها.. اخترق جموع الفضوليين أجد شابين يتشاجران و السباب سلاحيهما.. أحدهما ذي لحية.. ادقق في ملامحه، يبدو أنني شاهدته من قبل.. تذكرته.. مازالت كلماته و خطبته تتردد في مسامعي .. اتجهت إلى الكورنيش أتعجب مما رأيته.. شعرت بغربة قاتمة.. تتراءى إزاءي مشاهد الشاب يخطب.. السبحة تنساب بين الأنامل.. سحب الدخان تخرج من الأفواه.. الكأس أسير بين أيدي السكارى.. لغة السباب تتبارى.. بدا الكورنيش دربا من دروب الحيارى.. شاهدت العسكري لا يزال واقفا كالمسمار صلبا متجمدا.. ابتسمت.. واصلت سيرى عائدا .

10- حبيبتي القديمة

بحثت عنها في دفاتري القديمة.. سألت عنها نجوم البحر.. كأنها نسمة صفراء قابلتها في ليلة عذراء وارتويت من ضحكتها الخضراء.. مدت يديها تزرع الضياء وكأنها ذكريات.. بحثت عنها.. سألت الشمس والقمر والبيداء.

هناك خلف التل القديم وقفت أعلى صخرة الوادي أشاهد احتضار الشمس.. في الأفق البعيد.. تغوص في أعماق الكون.. تبدل لونها وانخلع عنها جبروتها.. صارت كالغريق عندما يفقد كل سبل الوصول لطوق نجاة..

رويدًا رويدًا تتلاشى.. الوهن يدق رأسها لتهوي بذلة وهوان.. ما زلت أبحث عن حبيبتي القديمة، لكن الظلام خرج من جحره يرقص على أنغام النهاية، ينشر رداءه البغيض عنوة وبلا استحياء.. على أعين الكون تفر طيور الحياة مذعورة تكف عن الغناء، تعود إلى أعشاشها تبكي ليلها، تندب حظها، تنعى رحيل الأنوار ونهاية أسطورة النهار.. يبقى أمل يترنح في قلب العاشق أن يهب القمر من غفوته ليرسم قيثارة غزل محاولاً طي صفحات اللوعة وألم الفراق.

بكيت في دهاليز الظلام.. ضحكات ساخرة لفحتني وزرعت أشواك اليأس في فؤادي وحملتني إلى صحراء جرداء.. نظرت في مرآتي وجدت شبحًا يتعلق بأذيال الحياة..

وسؤال أرسلته عبر صفحات القمر لحبيبتي القديمة:

هل بالإمكان العودة لما كان، أم أن الزمان صار بلا عنوان يهدم الأماني ويطمس ملامح الألوان؟!

11- المرحوم

هناك على طريق المقابر نجلس.. الرجال في جماعات والنسوة كتلة من السواد ينتحبن ويولولن.. ننتظر المرحوم.. يطول الوقت.. والأحاديث المملة لا تنتهي، سئمت.. قمت من مكاني جلست مع جماعة أخرى أستمع لما يقولون..

قال أحدهم: «رحمه الله.. كان من خيرة الشباب».

رد عليه آخر في أسى: «في اعتقادي أنه شهيد؛ فلقد مات في بلاد الغربة.. اضطر للسفر إليها لكي يساعد والده في نفقات الحياة»..

رد ثالث: «الله يصبّر أهله كان ابنًا بارًّا».

قمت إلى حيث جماعة أخرى..

قال أحدهم: «يا ترى يا جماعة كيف مات»؟

رد آخر: «لا نعرف أي شيء.. مجرد اتصال تليفوني أخبر أهله بوفاته، وليس هناك تفاصيل أخرى.. ولقد ذهب أهله لإحضار جثته من المطار، وها نحن ننتظر لنعرف»..

رد ثالث: «أكيد عمل حاجة.. طول عمره ولد شقي يختلق المشاكل ويجلب لأهله الهم والغم حتى وهو ميت أيضًا»..

رد آخر يتساءل: «ولماذا كان السفر من أساسه؟ كان من الأفضل أن يبقى هنا بدلاً من اللف في بلاد لا نعرفها ونجهل طباعها»..

قمت متألمًا.. مررت على النسوة.. بعضهن انخرط في البكاء والعويل.. وأخريات يثرثرن.

جلست بعيدًا.. أفكر فيما قيل ولا أدري أين الحقيقة.

فأنا لم أكن أعرف المرحوم.. مجرد السلام عندما نلتقي فقط.. لم يجمعني به أي تعامل أو حتى حوار.. وها هو قد رحل واختلف الناس حوله.. قطع حبل تفكيري صوت سيارة الإسعاف الكئيب.. هب الجميع واقفين.. تعالت الصرخات واشتد عويل النساء وانهمرت دموع الرجال.. موقف مهيب يجعل الحجر يبكي.. لم أجد ما ينطق به لساني سوى: الله يرحمه.. الله يرحمه.

12- الـوهـم

لم أكن أدري أن يأتي يوم تصل فيه الأمور لهذا الحد، ربمـا خـانني اعتقادي.. ربما قادني خيالي لحسابات وهميـة قـادتني بـدورها إلى جـسر هش ما إن وطأته قدماي حتى انهار وهويت كالصريع، ولم يكُـن معـي طـوق نجاة ولم أجد من يسعفني حتـى أصـدقائي وجـدتهم كمـن يـشاهدون عرضًـا مسرحيًّا أو فيلمًا سينمائيًّا..

لم أجد ملاذًا سوى حجرتي التي احتوتني بداخلها، بعيدًا عن أعين المتطفلين وملاحقـة المتربـصين.. وعلـى الـرغم مـن ضـيقها الواضـح وبـساطة أثاثها فإنها أضحت رمزًا للوفاء والدفء والأمـان، فكـثيرًا مـا كنـت أهـرب إليها من تساؤلات البشر التي تبدو كسوط يلـهب ظهورنـا ويزيـد مـن الآلام والهموم.

والآن وقد وصل الموقف لهذا الحد وتأزم بصورة غـير متوقَّعـة وبـات الأمر برمته على حافة الانهيار وما زال اعتقادي أن الأمور لم تكـن تتطلـب منا كل هذا التزمت، بل كان الهدوء وضبط النفس والتفكير العميق أكثر مـن مرة لمحاولة فهم الأمـر بـصورة أكثـر واقعيـة بعيـدًا عـن التأويـل وتفـسير

الموقف حسب منظورنا الشخصي.

هكذا اعتقدت في تصورها أنني أخدعها.. على الرغم من أن فؤادي منذ أن عرفها قد أغلق بابه على صورتها وطرد كل ثمار الماضي بذكرياته، ولم تبقَ إلا هي.. وكان وقوفي مع إحدى الزميلات مجرد موقف فرضته الظروف وحديث لم يخرج عن نطاق العمل، إلا أن داء الغيرة يبدو أنه أصابها وصارت تضع أولى بذور الجفاء في بستاننا النضير الذي ارتوى على أوتار حبنا وأحلامنا، ويبدو أن الأمر قد يصل إلى هدم كل معنى جميل والنار تزداد اشتعالاً وباتت القصة ترجوها أن تطفئ النار..

مضت كلماتي هباءً في محاولة لإقناعها بحقيقة الأمر، لكن الضباب أصاب عينيها، فلم ترَ إلا صورًا مشوهة منعت صور الأحلام أن تكتمل، وبات يقيني أنني أخطأت في اختياري ولم أتبين سوء قراري فمع أول هفوة تقابلنا..

في طريقنا يحدث هذا كله، وخاب ظني أن حبي صرح شامخ لأجده الآن هشيمًا تتلاعب به الرياح، فكانت صدمة هوت على فؤادي وفشلت محاولات المقربين منًا في إقناعها فلم أجد حلاً إلا اللجوء لحجرتي أنفض عن كاهلي حطام هذا الحب الذي أضحى وهمًا ولا يزال فؤادي في انتظار ما هو مقبل.

13- الدنيا حظوظ

انتابه شعور بالضيق والضجر.. تساؤلات تناوشه.. لماذا هذه المعاملة القاسية والجافة من البشر؟!

ربما خوف، لكنه لم يفعل شيئًا يرهبهم.. حتى الصبية يقذفونه بالحصى والحجارة.. سأل نفسه: أنا لا أفكر في إيذائهم على الرغم من قدرتي على ذلك، بل أحرص على خدمتهم وأسهر على حمايتهم من الذئاب والثعالب وتعقب اللصوص والكشف عن جرائمهم.. البعض يدرك ذلك، لكن كثيرين يتجاهلون خدماتي، بل الأدهى من ذلك أنه عندما يريد إنسان سب أخيه يناديه باسمي.. هل أنا حقير لهذه الدرجة في نظرهم؟!

فقط أريد معاملة كريمة وأن يقدروا قيمتي.. هل نسي الإنسان أن أحد أجدادي كان سببًا في دخول أحد أجدادهم الجنة؟ ظل يحدث نفسه.. يسير في الطرقات على غير هدى.. فكَّر أن يذهب لأصدقائه في الخرابة، لكنه قال لنفسه:

«كل مرة نجتمع فيها نظهر الود لبعضنا في البداية ثم نتعارك ونتشاجر بعد ذلك ويعلو صوتنا، مما يزعج القاطنين بجوار الخرابة

فيخرج أحدهم يقذفنا بالحصى ويطردنا.. ربما جعل ذلك ذريعة للبشر أن يعاملونا بذلة وهوان واستخفاف، مع أننا لو نبذنا الفرقة والشجار وكنا يدًا واحدة لقدَّر الإنسان قيمتنا وخشي من مجرد الاقتراب منَّا.. رحم الله أبي الذي كان يحكي لي كيف كانوا قديمًا ملوك الشارع وسادة الطريق.. إذا صاروا في طريق ارتعدت الأوصال وأغلقت الأبواب ولا يجرؤ إنسان مهما كان على السير معنا في الطريق نفسه.. كنا نسير في مجموعات لا فرادى»..

واصل سيره في الطرقات التي تعج بالبشر والسيارات تمرق حوله حتى وصل لإشارة المرور.. وقف يشاهد السيارات الفارهة.. شاهد كلبًا أنيقًا تطوقه سلسلة ذهبية حول رقبته وقد أخرج رأسه من شباك السيارة يمتع نظره برؤية الطريق.. ضحك وقال لنفسه:

«حقا.. ابن آدم عنده حق عندما قال إن الدنيا حظوظ»..

14- الحمامة الفدائية

حلقت طويلاً في الفضاء الفسيح.. كانت تنتقل من غصن إلى غصن في غبطة وامتنان؛ فالجو مشرق بشمسه الدافئة وسمائه الصافية.. ظلت تحلق حتى أبصرت على الأرض بعضًا من الحَبِّ المتناثر على الأرض فهبطت تلتقطه حتى سدت رمقها وحملت الباقي إلى صغيرها وانطلقت نحو عشها فوق الشجرة العالية؛ حيث ينتظرها صغيرها الذي استقبلها بالتهليل والسعادة التي اكتملت وهي تطعمه الحَب، تضمه وتغطيه بجناحيها في مودة وحنان وهو يشعر معها بالأمن والأمان.

تتطلع نحو الأفق تحلم باليوم الذي يكبر صغيرها ويملأ هذا الفضاء حركة ونشاطًا ويغرد في حب ووئام وتجلس معه على ضوء القمر يتسامران تقص له حكايات وبطولات والده الذي اغتالته طلقة صياد غادر.. فقد جمعهما الحب وعاشا معًا أسطورة عشق.. كانا ينطلقان معًا.. يشعران أن هذا الفضاء ملك لهما.. يحلقان فيه بلا قيود أو خوف حتى جاء اليوم المشئوم وهما يطيران معًا.. طلقة أصابت زوجها فهوى صريعًا.. وعلى الرغم مماً يعتريها من أحزان فإنها رأت في صغيرها هذا عوضًا لها عن زوجها؛

لذا اختارت هذا العش في أعلى مكان ليكون بمنأى عن أعين الصيادين الطائشة.

قطعت حبل أفكارها تلك الأصوات المزعجة وقد تلبدت السماء بالسواد والنار وأجسام تمر كالبرق في السماء.. وعلا صراخ وعويل أفزعا صغيرها، لكنه ضمته في حنان لتجيب عن سؤاله حول تلك الأصوات بحزن شديد:

«أي بني.. على الرغم من أنني لا أود إزعاجك بما يحدث، لكنني سأقص عليك ما رأيته.. فهذه الأجسام الغريبة التي تمرق فوقنا هي أجسام من صنع الإنسان أراد أن يقلدنا نحن معشر الطيور في الطيران فاخترع هذه الآلات وسمَّاها الطائرة والصاروخ، واستخدمها في هلاكه.. فهي تلقي الآن بالنيران على أهالي هذه المدينة البائسة المجاورة لنا، وكما تسمع الآن صرخات النساء والأطفال تحت أنقاض المدينة ولا أدري لماذا يقتل الإنسان أخاه.. عجبًا لأمر ولد آدم!!»..

تمر الأيام والطائرات لا تزال تقصف المدينة.. الحمامة حزينة على أهالي المدينة البائسة الأبرياء الذين يُقتلون ظلمًا وعدوانًا.. تبدأ في تعليم صغيرها الطيران.. وكلما تقدم فرحت به كثيرًا وأثنت على مهاراته، مما جعله يتعلم بسرعة ويطير بخفة ورشاقة وتملكته الجرأة في الطيران

لمسافات بعيدة عالية وأمه تتابعه وتشجعه.. لكن فجأة أبصرت طائرة مقبلة بسرعة فائقة فصرخت وانطلقت تحذر صغيرها الذي اعتقد أنها تشجعه.. فصوت الطائرة بدد صرخاتها وتحذيراتها.. لا تزال تصرخ.. صغيرها يعتقد أنها تثني عليه فزاد من سرعته وعلا في الفضاء علوًّا كبيرًا فرحًا مستبشرًا.. تنادي عليه أن يعود، لكنه استسلم لغبطته بهذا الفضاء معتقدًا أنه خُلق من أجله.. لكنه في أوج سعادته تصطدم براءته بما كانت تخشاه أمه.. تناثرت أشلاؤه في الفضاء.. ومن يسمع صرخات أمه المكلومة؟ علا نواحها ونشيجها.. هبطت تجمع أشلاء ولدها ودموعها تنهمر بغزارة وفؤادها تعتصره الآلام والهموم.

ظلت تبكي.. تحولت حياتها إلى سواد دائم لا يبارحها.. زارتها جارتها تواسيها، تحاول أن تخفف عنها صدمتها.. تنصحها بالصبر واحتساب الثواب عند الخالق.

لكن الحمامة تمخضت في ذهنها فكرة عرضتها على جارتها التي ذعرت وحذرتها من الإقدام على ذلك.

لكن الحمامة قضت ليلها المظلم وقد توارى القمر خلف سحابة من الدخان والنار ترسم خطتها بدقة لتحقق مرادها.

ومع بشائر الفجر والكون يطارد فلول الظلام وقفت أعلى الشجرة

تنتظر الفرصة تترقب ما حولها وعيناها تدوران في كل الأركان تبحث عن هدفها وجارتها تتابعها عن كثب.. بغتة أبصرت الحمامة طائرة من طائرات الأوغاد مقبلة نحوها، التقطت أنفاسها، استعدت جيدًا وحماسها الانتقامي يدفعها نحو غايتها.. في لحظة حاسمة غابت فيها كل الإدراكات والمعاني وتساوت صور الحياة فلم تعد لها قيمة تُذكر ومعنى يُتصور.. انطلقت الحمامة نحو الطائرة مندفعة تجاه المحرك وبالفعل استطاعت أن تنفذ إلى داخل المحرك في أسفل الطائرة وانحشرت بداخله ليتوقف المحرك، فهاج وماج قائد الطائرة مندهشًا لا يدرك سبب توقف المحرك.. يطلب النجدة، لكن بلا جدوى.. فقد تهاوت إلى أسفل وقد تحولت إلى كتلة نيران لتصطدم بالأرض كأنها بركان.

انزعج الأوغاد لتحطم أعظم طائرة لديهم، بينما هلل سكان المدينة الباسلة وهم لا يدركون من وراء ذلك.

بينما الحمامة الجارة تقص لقريناتها وصغارها بطولة الحمامة الفدائية وعظمتها في التضحية والفداء.

15- البحث عن مفقود

لا أدري أين هو.. أبحث عنه دومًا بلا جدوى.. غائب عني وربما هو الآخر يفتش ويبحث عني، لكنني سألت عنه في كل مكان.. يقولون إنه موجود.. لا تبحث عنه هو سيأتي إليك حتمًا، لكن كانت أمنيتي أن أعثر عليه وأنهل منه لأحقق مرادي.. أيام كثيرة وليالٍ طويلة أناجيه ربما يسمعني ويلبي ندائي.. لكن ربما يتهرب من مقابلتي.. خدعوني فقالوا إنه هناك أعلى الجبل، والصعود إليه محال، لكنني استجمعت قواي وقهرت المستحيل وصعدت أبحث عنه.. قالوا لقد نزل من عليائه ليقابلك.. لو صبرت وظللت مكانك لجاء إليك لكنك تعجلت، احترت وعجزت ماذا أفعل، رفضت أن أصدق حديثهم.. صوت علا: إنه لا يبحث عمَّن يبحثون عنه ولا يعطي محتاجًا.. صرخت: كيف وأنا أحتاجه؟ صوت آخر قال إنه قريب منك سيصادفك يومًا ما لكن اصبر.

إلى متى يكون الصبر والأيام تمر وعمري في تناقص ولم أحقق أحلامي؟! صوت ثالث لاحقني: «لا تعتمد عليه.. أيقظ عزيمتك واعتمد على إرادتك»..

تاه عقلي وما زلت أبحث عنه.. سألت الظروف أن تساعدني لكن بلا جدوى.. رحلت في كل الأماكن.. سألت الشمس وناجيت القمر أن يقولا له أنا هنا أبحث عنه..

الأمل يضعف واليأس يجتاحني.. أيها الحظ متى اللقاء أم نحتاج حظًا حتى نلقاك؟!

16- الرغبة الصادقة

بعد سنوات من الغربة وتجرع صنوف من العناء وتكبد مشاق عدة قرر العودة إلى وطنه بعد أن ادخر أموالاً توفر له حياة كريمة بقية عمره، وربما أنشأ مشروعًا يدر عليه دخلاً معقولاً.. عاد تحمله مشاعر قديمة من الاشتياق والحنين، التف حوله الأقارب ومعارف قدامى وأناس ادعوا أنهم كانوا أصدقاءه يومًا ما على الرغم من أنه لم يتذكرهم إلا أنه فتح ذراعيه للجميع يستأنس بهم ويعوض دفء المشاعر التي حُرم منها طوال سنوات الغربة، فضلاً عن حرمانه من نعمة البنين، مما جعله في حاجة لهؤلاء.

كان السؤال الذي يواجهه وكل من حوله يكررونه: ماذا تود أن تفعل بأموالك؟ عرضوا عليه مشروعات عدَّة.. كل يملأ أذنيه بمزايا مشروع ما.. الحيرة أصابته من كم ما صادفه من ألوان الكلام وهذه المشروعات التي عُرضت عليه.

ذات مساء كان يستمع لأحد برامج الـ«توك شو».. كان المذيع يعرض لحالة إنسانية.. طفل يتيم بحاجة مُلحَّة لمساعدة.. انخلع قلبه وانفطر عقله.. تعاطف شديد اجتاحه تجاه هذا الطفل.. قرر أن يفعل شيئًا ما

يساعده.. فكّر في أمر الطفل.. من المؤكد أن هناك عشرات الحالات المماثلة التي في حاجة ماسة للغوث والعون.. عشقه للأطفال – على الرغم من حرمانه من الإنجاب – جعله يفكر جديًا في أمر ما.

دار أيتام.. هذا هو المشروع الذي سينفذه ويستثمر فيه أمواله.. هكذا صرح للمحيطين به.. قوبل بعاصفة من الاحتجاج والرفض.. حاولوا إقناعه.. مشروع بلا عائد.. كيف له أن يبدد مدخراته في هذا؟! حاولوا إقناعه وإثناءه عن فكرته.. حدثوه بلغة المكسب والخسارة.. رد عليهم بلغة الإنسانية.. استهزءوا بكلامه.. فشلوا في إقناعه.. سخروا منه.. بل تطاول البعض ليصفه بالخبل والعته.. صم أذنيه عنهم ومضى في تنفيذ فكرته.. انفضوا من حوله.. صار وحيدًا، لكن هذا لم يفتر من عزيمته.

الآن يجلس وسط أطفاله في الدار يعلمهم، يزرع بداخلهم الحب والأخلاق.. يكفيه أن يرى الابتسامة تزين وجوههم.. يكفيه مشاعر الحب الصادقة المتبادلة بينه وبينهم.. الآن استطاع أن يمحو كل ألوان الشقاء في غربته.. يشعر بالرضا، وتلك الرغبة الصادقة التي تقبع في وجدانه كي يواصل رسالته.. تكفيه راحة البال في مشروع كُتب عليه مكسب بلا خسارة.

17- رسالة قديمة

كالعادة تشاجرت مع زوجتي.. صارت عادة روتينية لا يخلو جدول أعمال يومنا من هذه المشاحنات التي لا تنتهي وتندلع لأتفه الأسباب.. تركتها ودخلت حجرة النوم وهي في ثورتها تغمغم بكلام اعتدت على سماعه.. جلست أتذكر الماضي وأستحضر من الذاكرة صور الماضي وهذا الحب الكبير الذي كان يجمعني بزوجتي وتلك الكلمات العذبة التي كانت تلازمنا في كل حديث يجمعنا.. أين هذا الحب بعد مرور عشرات السنوات؟ وأين تلك المعاني الجميلة؟ فتحت دولابي أبحث في أوراقي القديمة عن هذا الخطاب الذي أرسلته لزوجتي في بداية تعارفنا وبعد الخطوبة مباشرة.. فتحته لأقرأه لعلي أستمد به سعادتي الغائبة:

«حبيبتي ونور عيني ومهجة فؤادي وربيع عمري.. كم أهواكِ وأنا في بحر غرامك أغوص وبأطياف عينيك تجول مشاعري وتسبح خواطري في أزهار ابتسامتك أستمد بها عزيمتي وأملاً يدفعني لكي أفعل المستحيل حتى تظل تلك الابتسامة تزين وجهك الذي توارى منه القمر خجلاً.

حبي.. يا من حبي لك لا يضاهيه حب.. لتعلمي يقينا أن سعادتنا مسئوليتي وسأظل طوال عمري الحبيب المخلص والقلب الحنون والزوج

العطوف.. فأنت ملكة متوَّجة في فؤادي، حبي لكِ يزداد يومًا بعد الآخر..

أنت الجمال كله والعفة والأخلاق.. يا زهرة سعادتي وشمس حياتي التي لا تغرب أبدًا.. سأظل أسيرًا في محرابك وعاشقًا يهيم شوقًا ويحلم بغد يجمعنا.. حيث تنتظرنا طيور السعادة لتشدو لنا أجمل ألحان العشق.

حبيبتي..

أعاهدك أنا حبيبك باسم الحب والسعادة والرباط المقدس الذي سيجمعنا أن أظل دومًا بحبي وغرامي وحناني أغمرك بأشواقي لتصبحي أسعد إنسانة في الوجود..

حبيبتي.. صدقيني ليس بالكلمات وحدها تكتمل الصورة، لكن أفعالي ستثبت صحة كلامي»..

فرغت من قراءة هذه الرسالة وعقلي يتساءل: ماذا حدث حتى تنضب هذه الكلمات العذبة وتختفي السعادة والدفء من حياتنا؟ هل أصبحت هذه الرسالة القديمة عوضًا لي عن سعادتي كلما تشاجرت مع زوجتي أهرول أفتحها وأقرأ كلماتها؟ هذا الحب ماذا أصابه خلال تلك السنوات حتى يصبح مجرد ذكرى وتصبح الحياة بستانًا أصابه قحط فماتت الخضرة وهجرته طيور السعادة، وأصبح مقفرًا.. الجدب يقبع فيه؟!

انتبهت على صوت زوجتي المزعج فطويت الرسالة وأسرعت بوضعها في مكانها لأستعد لمشاجرة جديدة مع زوجتي.

18- بائعة المناديل

كأن البداية تشبه النهاية، مع أن الإحساس بهما غاية يرفضها الزمان، ويبررها العقل الإنساني، تتساوى معها أحلامنا المهدرة وذكرياتنا الفائتة، ولم تكن «أحلام» البائسة المسكينة التي فرض عليها القدر أن تعيش حياة البؤساء في الشارع كغيرها من الباعة المتسكعين.. مجرد بائعة مناديل ورقية، بل كانت أحلامها تتجاوز المدى.

عيناها تطلبان الرجاء من المارة أن يبتاعوا منها، مع أن العيون الجائعة لا ترحمها من النظرات الشهوانية، وكم عُرض عليها من المغريات، لكنها تعلمت كيف تصمت وتكتفي بالاستنكار، وأهون على النفس أن تموت جائعة من أن تعيش بلا شرف.

ولم يكن جارها أشرف - ماسح الأحذية - أكثر حظًّا منها في السعادة، لكنه كان يشفق عليها ويتمنى لو أنه صار مفتاح السعادة لها.. طلبها للزواج على الرغم من ظروفه التعيسة.. أمها العجوز لم تمانع، مع أنها تعلم أن السعادة لن تعرف طريق ابنتها لكنها قالت: «ضل راجل ولا ضل حيطة»..

أما هي فقالت الحب هو السعادة والسعادة هي الحب.. وتزوجا.. انتظرا السعادة لكن كيف تأتي والفقر يلازم حبهما؟ مرت شهور.. رحلت أمها العجوز، في الليلة نفسها جاءها نبأ القبض على زوجها متهمًا بالسرقة.. بكى زوجها وهي تزوره في قسم الشرطة.. اعتذر لها.. كان يود تحقيق أحلامها؛ فهي حامل والمسئوليات تتوالى وتتزايد والفقر لا يبارحهما، وكم كان يتمنى لو يرحمها من الشارع ومضايقاته فسار في الحرام لكنه هوى سريعًا.

وحيدة هي.. الأم ماتت والزوج محبوس وما في بطنها قادم إلى عالم مجهول..

لا تدري ماذا تفعل..

من أين ستنفق عليه؟ دخلها من الشارع لا يكفي.. حتى التسول فشلت فيه.. تساؤلات حائرة.. دموع ثائرة، لكن ما بيدها شيء تفعله.. ضغوط شتى وهي وحيدة شريدة.. الأيام تمر وموعد الولادة يقترب.. الآلام تتزايد والهموم تتكالب.. آه منك يا زمن.. لو علمتنا كيف نحقق أحلامنا دون أن نقف عند حدود رسمها أو تخيلها، لكنك تحالفت مع ظروفنا البائسة، وكنت سوطًا يزيد آهاتنا وأوجاعنا.. قد نتمسك بالأمل ونقيم لأنفسنا عزاء في سرادق الأمل والرجاء، لكنك تقف خلفنا تسخر منا.. هكذا

كان لسان حالها.. جاءها المخاض وهي في الشارع.. نقلوها للمستشفى.. أفاقت والمرضة تدخل عليها بابتسامة صفراء تبشرها بأنها ولدت بنتًا جميلة.. لم تدُم فرحتها.. قدمت لها فاتورة المستشفى بما تحمله من رقم فلكي.. تركتها المرضة حائرة تتساءل: كيف يمكن السداد؟ تساقطت دموعها على مولودتها تلقي نظرة شفقة عليها.. رفض المستشفى خروج المولودة إلا بعد دفع فاتورة الولادة.. بعد تفكير عميق مليء بالأسى والشجن.. هربت في منتصف الليل تاركة مولودتها للمصير المجهول.. هذا هو الحل حتى لو كان عليها أن تتخلى عن فلذة كبدها.. هكذا بررت لنفسها فعلتها.

تمر السنون سراعًا.. خرج زوجها من السجن بعد قضائه عقوبة الأشغال الشاقة لقتله زميله في الزنزانة في مشاجرة بينهما.. يبحث عن زوجته وابنته.. البعض قال إن سيارة مسرعة دهستها ليلة هروبها من المستشفى.. آخرون أكدوا أنها انتحرت.. فريق ثالث أقسم إنها تحالفت مع الشيطان وصارت من ندماء الليل.. أما المولودة فقد أودعها المستشفى في دار رعاية تعلمت فيها فنون الإجرام.. هربت منها.. عملت بائعة مناديل.. قابلت أمها ولم تكن تعرف أنها أمها التي لم تكن تدري أنها ابنتها أيضًا.. أمها قالت لها: دعكِ من هذا الفقر، تعالي معي إلى عالم الليل بما يحمله

من سعادة وثراء.. وبعد أن كان الندماء قد تخلوا عنها لكبر سنها أقبلوا عليها من جديد، ليس من أجلها بل للنيل من البضاعة الجديدة – كما أطلقوا عليها.

أما الزوج فقد أصابه خبل من البحث.. ما زال يجلس في سرادق الأمل.. يحلم بلقاء زوجته وابنته التي لم يرَها.. وبدا حلمه القديم في الثراء والسعادة كرجل عجوز أصابه الوهن ينتظر إما الموت وإما أن ينزل عليه دواء يعيد إليه شبابه المفقود.

19- ذكريات «دوت كوم»

اللحظات تمر والاشتياق يـزداد.. فالعائلـة قـد اجتمعـت أمـام ذلـك الجهـاز العجيـب المـسمى «الكمبيـوتر» مـن أجـل الاتـصال بحفيـدي المقـيم بالكويت عبر الإنترنت صوتًا وصورة.. وها هو حفيدي الآخر يشرح لنا تلك التكنولوجيا وكيفية استخدامها والكل فاه مفتوح من الانبهار.. تابعتـه مـع أولى خطوات شرحه، لكن تعقدت كلماته وعجـزت عـن مجاراتـه وفهـم مـا يحدث..

وعدت بعقلي إلى الوراء وشريط الـذكريات يـدور يفـتش في الماضـي.. أيام الطفولة عندما سافر والدي الموظف بوزارة الـري ليعمـل في الـسودان ولم يكن من وسيلة اتصال به إلا عن طريـق البريـد، وكنـا نتلـهف علـى وصـول خطاباته؛ كما كانت أمي تأخذني للمدينة لكي نذهب لمكتـب البريـد نرسـل الخطابات لأبي، التي كانت تصل بعد نحو شهر.

الشريط ما زال يدور ليتوقف عندما سافر ولدي للعمـل في الـسعودية وكنت أسأل ساعي البريد عندما يغدو ويروح: هل وصل خطاب من ولدي؟

وأصبح الأمر سهلاً نوعًا ما بعـد افتتـاح سـنترال في القريـة؛ حيـث

كنت أذهب وأعطي الرقم للموظف ليطلب ولدي، كنت أنتظر بالساعات، وغالبًا ما كان يفشل الاتصال بحجة عدم التجميع أو أن الخطوط مشغولة أو أن هناك عطلاً، وعندما أدخل جاري تليفونًا كنت أمكث عنده بالساعات أيضًا فكان لزامًا أن نطلب السنترال ونعطيه الرقم.لكي يقوم هو بمهمة الاتصال، وننتظر أن يرد علينا وغالبًا ما كان يطول الانتظار.

وتمر السنوات وتغزو التليفونات قريتنا بعد أن أصبح السنترال آليا وأصبح بإمكاني أن أتصل بولدي في أي وقت بعد أن أدخلت المباشر والدولي.

لكن عقلي لم يكن يتصور يومًا أن أرى صورة حفيدي يتحدث ويلوِّح لنا وهو يرانا في اللحظة نفسها بعد أن كانت أقصى أمنية لنا أن تصل خطاباتنا.

توقف شريط الذكريات بعد أن رأيت حفيدي يظهر على الشاشة يرحب بنا ويسأل عن أحوالنا..

زالت الدهشة وحلت الابتسامة بعد أن رأيت الجميع يتسابقون على من يتحدث أولاً وحفيدي على الجانب الآخر يبتسم.

20- للقمر وجوه أخرى

بعد سنوات من الغربة عدت.. لم يلفت نظري سوى ذلك الوجه الملائكي.. كأني أعرفها منذ سنوات على الرغم من أنهم انتقلوا للحارة من عهد قريب.. جمال وجهها من النوع الأخاذ الذي يثير في النفس كل مشاعر المحبة واللوعة.. نظراتها تشبه نور القمر بسحره فتتعلق العيون هائمة في محرابه تتأجج معها نيران الاشتياق.. بشرتها وردة ناضرة وُلدت لتوِّها من رحم الربيع.. ابتسامتها فرات عذب يثمل العاشقين.. تنظر من نافذتها كأنها حوراء عين طلت من السماء.. سحرتني بعليائها وأريج جمالها على الرغم من أنني لم أرَ سوى وجهها ولم أعرفها إلا من خلال نافذتها، كأن رباطها بالحياة هو تلك النافذة.. تشبه ملكة البحر عندما تخرج لحظات معدودة للشاطئ ثم تعود إلى خدرها لا تبالي بنظرات الهائمين في ملكوت جمالها.. ربما لا تشعر بوجودي وساعات انتظاري تحت نافذتها حتى تخرج وأنهل من بديع رونقها وبهائها.. فمن يملك الجمال يشبه مالك المال.. لا يهتمون بما لا يملكون أو من يسعون نحوهم.. سألت عنها جاءني رد مقتضب وكأن جمالها لا يشفع لكي نكتب عنها صفحات..

صارحت أمي بهيامي بها.. نظرت لي نظرة شفقة ونظراتها تلاحقني: لماذا هذه دون غيرها؟!

أدهشني رد فعل أمي، فلم أسمع عن محبوبتي سوى جمالها.. لا شيء آخر، فلماذا هذا يا أمي؟ تركتني على أشواك الحيرة وهي تقول: ألا تعرف ظروفها؟

طلبت مشورة صديقي بعد أن بُحت بسري.. ضحك ساخرًا قائلاً: وهل سترضى بها على حالتها هذه؟ فسألته في حدة طالبًا منه التوضيح، لكنه نصحني أن أبحث عن غيرها، ثم تركني دون أن يوضح شيئًا.. ماذا يعرفون عنها ما أجهله؟

كاد عقلي ينفجر.. هل يختلف أحد على روعة القمر في بدره؟! هل ينكر أحد بديع الأزهار؟! أسئلة شتى بلا إجابات فلا أحد آخر أسأله، وأمي ترفض أن تفصح عن شيء.. سألت النجوم عنها وكتبت مئات القصائد عن ضيائها ورسمت وجهها بألوان تضاهي جمالها.

ذات ليلة جلست على المقهى المواجه لنافذتها أتطلع وأدعو أن تهل.. لحظات ثقيلة.. فجأة خرج والدها من باب العمارة ثم أحضر «تاكسي».. في تلك اللحظة خرجت أمها وشقيقها.. لكن ماذا يحملان؟ ما

هذا؟ أيعقل ما أراه؟

يا إلهي.. إنهما يحملانها وهي تجلس على كرسي متحرك ليضعوها في «التاكسي».. صُعقت كأن حية لدغتني.. اندفعت نحوهم.. رأيت الانكسار في عينيها.. ركبوا.. تركوني في غيبوبتي وعيناي لا تريان سوى سواد يخنقني.

أيعقل أن يحمل هذا الوجهَ البديعَ جسدٌ مشلولٌ؟! عادت تساؤلات أشد قسوة تلهب عقلي..

عدت.. قابلتني أمي.. قالت: من يصعد القمر ويشاهد حقيقته عندما يعود للأرض لن ينظر إليه مهما حاول القمر أن يبدع في زينته..

قال صديقي: المشكلة أننا ننظر للزهرة من عليائها.. لا نهتم أبدًا إن كانت ساقها جميلة أم قبيحة..

قلت: لن أتخلى عنها فأنا أحبها.. لكن أمي قالت: لا تخدع نفسك أنت أحببتها لجمال وجهها.. من يعشق ضياء القمر لن يفيده ولن يجده عندما يصعد لسطحه.. بل سيجد ظلمة وقتامة.



21- لؤلؤ مكنون

فجأة.. ذات صباح أبصر الناس مولد زهرة جديدة.. في قلب الصخر بزغت وتبوأت متنفسًا في الحياة.. عجب الناس من أمرها.. زهرة غريبة الأطوار.. احتار أصحاب الألباب إلى أي شيء تنتمي.. إلى الواقع أم الخيال..

ما عهدوا رونقها من قبلُ.. شكلها يحمل كل الأشكال.. هيئتها تتناغم مع كل الاحتمالات.. لونها يحمل كل الألوان.. نظراتها ترسم لوحة من شمعة تخترق الظلمات.. جاء الشعراء من كل الأحياء يمنون أنفسهم بقصيدة عشق خالصة.. كلماتها تغزل أبياتًا عصماء..

ومن كل الأرجاء حضر الفنانون والأدباء يحملون الألوان والألواح ينشدون صورًا ذات رونق وبهاء.. لكن هيهات.. هيهات.. عجز القلم ونكست الريشة.. انبهروا بجمالها.. سكروا في محراب رونقها الأخاذ.. ربما حوراء عين من السماء ضلت الطريق.. ربما لؤلؤ مكنون خرج من رحم الجمال.. يتساءلون: أما زال في جعبة الجمال جمال؟!

تتوالى أيام.. تمر شهور.. تبقى الزهرة مزارًا لكل عيون الجمال وعشاقه.. الآن يتنافسون.. يتجادلون عن أصلها ونسبها.. تنساب دموعها..

تود لو ظلوا في مراكب الصمت ينهلون من جمالها.. لكنهم ما زالوا في جدال وشقاق.. دموعها تطفئ جمالها رويدًا رويدًا.. تتضاءل.. ما زالوا في غمرتهم ساهين.. عمَّ يتساءلون؟ بكتها الشمس.. نعاها القمر..

الآن أبصروا من أطفأ ضياءها..

رحى الأسئلة تدور.. وطيس علامات الاستفهام يدق.. ربما يستيقظون لكنهم عادوا يتساءلون..

لتبقى علامات الاستفهام تفتك بكل لؤلؤ مكنون.

22- محترفو البكاء

صادفتني وجوه شتى وأصوات تتباين وحكايات تتناقض وأنا في دوَّامة.. حاولت أن أفهم وأستوعب، أن أضيف لهمومي هموم الآخرين.. دائمًا صوتهم عالٍ.. لا يكفون عن الشكوى والأنين بنبرات تحمل الهم والعذاب.. ناقمون يودون تحقيق مطالبهم في أسرع وقت.. ربما جعلوك أنت السبب لو تأخرت الردود على شكواهم.. تحاول أن تفهمهم أنه لا ذنب لك في هذا التأخير، لكنهم رافضون وأصواتهم تعلو أكثر.. تختلط أحيانًا بدموع لا تدري إن كانت دموع تماسيح أم أنها تنبع من جرح يدمي.. وأنا أجاهد عدوا أن أمسح تلك الدموع، لكن ربما في أحيان كثيرة تبدو يدي قصيرة، وصوتي ضعيف، وهم لا يدركون ذلك.. يلقون اللوم عليك.. تتفاوت أسئلتهم.. لا يريدون فهم كلامي، وأنا حائر.. وكلما جلست مع أحدهم لاحقني بشكواه، محاولاً إضفاء مزيد من الأسى لكي أتأثر به.. ولو جاء آخر وانتبهت إليه غضب، فهو يريد أن أسمعه فقط.. لا يهمه سوى شكواه، بل قد يتهم الآخر بالكذب وقد يتطور الأمر لو تجاهلته بأنك تضطهده ولا تريد مساعدته.

كثيرًا ما أسأل نفسي: لماذا دائمًا يشكون ويذرفون الدموع؟ هل هم

حقًّا صادقون؟

هل هم محترفو ذرف الدموع والصوت المزوج بالشكوى والأنين؟

تختلط الأقاويل وتتباين، وأنا عملي يحتم عليَّ أن أستمع لكل شكوى.. فرئيس التحرير جعلني مشرفًا على صفحة الشكاوى.

لا أدري هل أفكر في مشكلاتي وصراعاتي أم أوفر جهدي للتفكير في مشكلات الآخرين.. تزداد معاناتي مع تأخر ردود الوزارات.. وأصبح هذا اليوم الأسبوعي المقرر لمقابلة أصحاب الشكاوى كابوسًا يطاردني، يلاحقني بقية تعبه بقية أيام الأسبوع لا تسألني مَن على صواب، فربما أنا المخطئ وهم على حق.. لكنهم دائمًا يبكون والدموع لا تفارق مقلهم.. أجاهد نفسي في إضفاء البسمة على شفاههم الحزينة، لكنهم ما زالوا في حاجة للإدراك وفهم مغزى كلامي وطبيعة عملي.. لا أكذب عليهم.. أخبرهم بكل شيء فربما دارت الأيام وتقلبت الظروف وأصبحت مثلهم، فمن يدري ربما أصبحت مثلهم من محترفي البكاء؟!

لكنني على الرغم من ذلك كله ما زلت حائرًا.. لماذا يبكون؟؟!

كانت هذه رسالتي لرئيس التحرير لإعفائي من الإشراف على هذه الصفحة.. قرأتها مرات عدَّة.. فكرت طويلاً ثم مزقتها.. على الرغم من هذا كله فعملي رسالة وتكفيني ابتسامة من أساعده.

23- خليل «ماوس»

أصيب خليل «ماوس» بصدمة شديدة بعد انقطاع الإنترنت وشبكات المحمول.. حتى قناة الجزيرة انقطع إرسالها وليس أمامه سوى قنوات الكذب القومية كي يتابع أحداث الثورة الملتهبة والتطورات المتلاحقة بعد جمعة الغضب واعتصام المتظاهرين بميدان التحرير.

يجلس في بيته يود الذهاب إلى الميدان.. لكن والدته رفضت ونهرته بشدة خوفًا عليه؛ فهو وحيدها الذي أفنت عمرها من أجله بعد وفاة والده وهو لا يزال ابن شهرين.. فشل في الدراسة نتيجة تدليلها الزائد له.. منعته من الالتحاق بأي عمل.. وحقيقة الأمر أنه لا يجيد فعل أي شيء سوى الجلوس أمام شاشة الحاسب لتصفح الـ«فيس بوك».. فبعد ملله من مشاهدة الأفلام والتنقل بين قنوات التليفزيون اشترت له «كمبيوتر» كي يشغل وقته.. أرسلته إلى محل «نت كافيه» بضعة أيام قضاها لم يتعلم سوى الدخول والاشتراك في الـ«فيس بوك» ليتشاجر مع صاحب المحل ويضربه بالـ«ماوس».. لهذا أطلق عليه أقرانه بالحارة «خليل ماوس».

الملل يخنق خليل، والأخبار السيئة عن الانفلات الأمني تتلاحق

وفتح السجون واحتراق أقسام الشرطة.. مخاوف شتى انتابته.. نـادى منـادٍ في الحارة أن يخرج الرجال والشباب لحراسة المنازل ومداخل الحـارة بعـد تـوارد أخبـار عـن وجـود عـصابات مـسلحة وبلطجيـة يهـاجمون البيـوت والعمارات ويقومون بأعمال سلب ونهب.. أصيب خليل وأمه بالـذعر.. قـرر الخروج بعد أن شاهد أهـل الحـارة يقفـون للحراسـة ويفتـشون أي شـخص غريـب أو سـيارة تمـر مـن الحـارة.. اصـطدم بخـوف أمـه عليـه.. حـاول إقناعها.. يود أن يشعر برجولته.. صرخ في وجهها: «يـا الميـدان يـا اللجنـة الشعبية».. رضخت لطلبه.. لكنها أصـرت علـى النـزول معـه.. لم يجـد مـا يأخذه كسلاح سوى مُلَّة الـسرير الخـشبية.. حـاول رجـال وشـباب الحـارة إقناع أم خليل أن تعود لشقتها وابنها معهـم في أمـان.. لكـن غريزتهـا تـصر على البقاء بجوار ولدها.. الخوف يؤلمها، خاصة مع سقوط شـهداء وانتـشار شائعات حول تزايد أعداد القتلى.. لم يكن الحل سوى أن تجلس مـع ولـدها أمام العمارة.. شدة البرودة جعلت خليل يشفق عليها.. طلب منها مرارًا أن تـصعد للـشقة لكنهـا أبـت.. تركتـه وصـعدت لكـي تحـضر سندويتـشات.. انتهزها خليل فرصة وذهب ليقف مع الرجال في مدخل الحـارة.. اسـتهوته فكرة تفتيش السيارات المارة.. استيقظ حلـم ضـابط الـشرطة الكـامن لديـه.. تقمص الدور وأمعن فيه.. كان يسأل عن حزام الأمان وطفاية الحريق وشنطة

الإسعافات الأولية.. يستفز قائدي السيارات.. يقف منتفخًا يحمل مُلَّة السرير.. يقلد حركات رجل الشرطة.. بينما والدته تحمل السندويتشات تبحث عنه.. تنادي عليه.. لمحته.. راقبت تصرفاته.. ضحكت بشدة.. دمعة انحدرت على خدها تشفق عليه.. ماذا ستفعل به الحياة وهو لا يعي منها شيئًا سوى وجودها معه؟ لم يتعلم شيئًا سوى الاعتماد عليها.. التدليل والخوف الزائد صنعا منه إنسانًا مسلوب الإرادة.. يعجز عن اتخاذ قرار.. تشعر بأنها ظلمته على الرغم من أنها كانت تتصور أنها بذلك تعوضه الحرمان من حنان الأب.. تمنِّي نفسها بنجاح الثورة.. ربما تفتح نافذة جديدة للشباب.. تتقدم نحو ولدها تقدم له السندويتشات فخورة به.. تضحك على الكوميديا التي يصنعها.

في اليوم التالي تكرر السيناريو نفسه.. اليوم التالي كان خطاب مبارك العاطفي.. ذرفت دموع أم خليل تعاطفاً مع كلامه وخطابه المؤثر.. في الصباح وقعت موقعة الجمل.. أو قُل مذبحة التحرير، أسوة بمذبحة القلعة.. هكذا وصفها سعيد الحلاق، زميل خليل.. أصيب خليل بحالة هياج شديدة وهو يرى بلطجية يحملون العصي والسنج والمطاوي والسيوف يقتلون شباب التحرير والجمال تغزو الميدان كأنها موقعة من عصر الجاهلية.. بكت أمام خليل.. رفعت يدها للسماء تتضرع، وتدعو بالسوء

على مبارك وأعوانه.. أصيب خليل بالاكتئاب.. اعتقد أن الثورة فشلت.. مع إصرار الشباب على مواصلة الاعتصام ودَّ لو كان معهم يشاركهم العزيمة والإرادة حتى جاء اليوم المبين وتنحى مبارك عن الحكم.. فرحة طاغية وهستيريا سعادة انتابتا خليل وأمه.. خرج مع أهل الحارة يحتفل معهم.. سهروا حتى الصباح في نشوة الانتصار والفخر والاعتزاز.

مساء اليوم التالي خرج خليل وأمه إلى ميدان التحرير يشاركان الآلاف فرحة الانتصار ونهاية الانكسار ونجاح الثوار في تحقيق الغاية والقضاء على فساد طال أمده.. وقفوا يحتفلون ويرقصون أمام الدبابات وجنود الجيش يشاركونهم الفرحة.. يلتقطون صورًا تذكارية أمام المدرعات الحربية.. أما خليل فقد ردد في زهو: «مصر اتولدت من جديد».

24- الماضي لا يعود

قابلت شيخًا متقادم الميلاد ذا جسد منحنٍ يكاد رأسه يلامس الأرض.. يترنح يمينًا ويسارًا حتى يظن الرائي أنه سيهوي على الأرض من شدة الإعياء.. وتحسب قدميه من البطء والتخاذل لا تسيران كأنهما شجرة ذابلة تحركها الرياح كما تشاء.

أحزنني هذا الموقف ورؤية هذا الشيخ الطيب الذي يتدلى من لحيته البيضاء الوقار والاحتشام.. فتقدمت وأمسكت بيده أسأل عن مقصده فرفع الشيخ هامته ونظر لي نظرة بيَّنت الدموع في عينيه.. فتألمت بشدة وربتُّ على كتفه مهدئًا من روعه، فقال في صوت ممزوج بالشجن والأسى: «لا أدري يا ولدي.. لم يعد لي أحد في هذه الدنيا».. زادني هذا الرد حزنًا وشفقة على هذا الشيخ وسألته أن يبين لي الأمر، فقال: «إنني كنت أعيش في الماضي في دار قبلة للفقراء والمحتاجين.. لا يخرجون إلا سعداء يحمدون الله ويشكرون فضله ويدعون لي بمزيد من العطاء والسخاء.. عشت سعيدًا مع أسرتي أشعر بمعنى السكينة والأمن والإيمان.. لكن الأيام لا تبقي أحدًا على حاله ولا تدع الآمنين ينعمون بحالهم، فسرعان ما تبددت الأحوال.. كبر

الأبناء وتزوجوا واستقل كل واحد بحياته بعيدًا عني ورحلت زوجتي فعشت وحيدًا شريدًا بعد أن وهنت صحتي ولم تعد لي قدرة على العمل.. كما خلت داري من مريديها بعد أن أصبحت غير قادر على السخاء وصارت داري صامتة كصمت القبور لا تسمع فيها إلا نغمات البوم والخفافيش.. كلما نظرت إليها أجدها موحشة مقفرة فيزداد قلبي حسرة وألمًا.. أتمنى عودة الماضي، لكنه أمل بعيد المنال أشبه بالخيال حين يرنو إلى الكمال أو يتمنى المحال والأماني الطوال.. فهربت من داري على الرغم من سوء صحتي، فلم أعد أستطيع البقاء فيها، وكما تراني أسير في الدروب على غير هدى!»..

حزنت بشدة لحال هذا الشيخ الطيب واصطحبته إلى داره.. جلست معه ساعات طوالاً نتسامر ويقص عليَّ ذكريات الزمن الجميل حيث الماضي السعيد.

واظبت على زيارته.. أقوم في كل مرة على بعض شئونه وأشعره بالمحبة والألفة، وهو لا يكف عن الدعاء لي بالخير.

مرت شهور وكعادتي ذهبت لزيارته، وحينما اقتربت من داره أبصرت جمعًا غفيرًا يقف أمام بابه.. أسرعت الخطى واخترقت هذا الكم من الفضوليين أتساءل عن سبب تجمعهم، فقيل لي: لقد مات الشيخ الذي

كان يقطن هذه الدار.. صُعقت لهـذا النبـأ المفجـع، فقـد تركتـه ليلـه أمـس والابتسامة لا تفارقه.. بكيت علـى فقـدان هـذا الـصاحب الـذي لـن يعـوَّض وظللت طوال حياتي أتذكر هذا الشيخ الوقور وأنا أدعو له بالرحمة.

تـذكرت الآن هـذا الموقـف وقـد مـرت الـسنون سـراعًا والـشيخوخة داهمتني، لكن بجواري حفيدي الذي طلب مني أن أقـص عليـه حكايـة مـن ذكرياتي القديمة فلم أجد سوى قصة هذا الشيخ.. نظرت حـولي وقـد بلغـت من العمر عتيًا وأبنائي حولي وأحفـادي يمـلأون حيـاتي بهجـة، وداري مـا زالت قبلة للمحتاجين.. سألت نفسي: أيكون هذا لأنـي أحـسنت إلى عجـوز وأنا في عنفوان شبابي؟ لم يشغلني هذا السؤال بل جلست أدعو لهـذا الـشيخ بالرحمة وأتذكر أيامه الجميلة التي لن تعود.

25- الحب وحده لا يكفي

أعشقها.. ولنا في الحب روايات.. ذكريات جمعتنا.. وما زال الأمل يراودني في أن تصبح هي الحياة.. لماذا يتهامسون ويغمزون؟ بحثت عن المبرر بلا جدوى.. أشياء متباينة وأفكار متناقضة أراها على ألسنتهم.. قلت لنفسي: سأمضي في رحلتي بعزيمة الجبال التي لا تزعزعها العواصف.. في هذا الليل المستفز بظلمته كنت أجلس على قارعة الطريق أبصرت شبحًا قادمًا.. انشغل عقلي: من يكون القادم؟ عيناي تتلمسان ملامحه لعلها تفك طلاسمه.. حين أدركتها هوت عليَّ صاعقة ألجمت عقلي ولساني.. تساؤلات حائرة وأفكار ثائرة.. أين كانت؟ ولماذا تسير بمفردها في هذه الظلمة الموحشة؟ لماذا تأخرت في العودة لبيتها حتى الآن؟!

علامات استفهام حائرة وأجوبة تائهة.. عندما رأتني تجاهلتني، لكنني اعترضت طريقها.. سألتها أين كانت..

أطرقت صمتًا وخوفًا.. زدتُ من حدتي وأنا أعيد سؤالي.. ردت وهي تحاول الفكاك من أسئلتي:

«فيما بعد ستعرف»..

قلت متحديًا:

«لا.. أريد أن أعرف الآن لأستريح».

قالت والدموع تنهمر من عينيها:

«دعني وشأني أرجوك».

مضت وأنا أتابعها والشك يقتلني وظللت طوال ليلي أتقلب على فراشي كمن ينام على الجمر، وعقلي يكاد ينفجر من التفكير وتساؤلات تطاردني:

أيكون سلوكها...؟ أصرخ وأقول: لا.. لكن لماذا الناس عنها يتهامسون؟ ربما يكون هذا هو المبرر.. أيُعقل هذا؟ الإنسانة التي اختارها قلبي يكون سلوكها هكذا.. مستحيل.. ولكن لماذا ربما؟ فكل شيء جائز في هذا الزمان.. مستحيل.. بريئة بلا شك.. ولكن لو كانت بريئة وهناك شيء أجبرها على الخروج والعودة في هذا الوقت المتأخر فلماذا رفضت الإجابة عن سؤالي وتهربت من الرد؟!

في اليوم التالي حاولت رؤيتها، لكن كيف الوصول إليها وأنا لا أراها إلا في أيام متباعدة صدفة؟ فلا شيء يربطني بها سوى حب صامت بريء يبحث عن النور، لكن الأهل يغلقون كل الأبواب، رافضين كل

محاولات الإقناع..

وأنا لا أفهم لماذا يعترضون ويرفضون.

في ظلمة الليل جلست في المكان نفسه ربما تعود.. لكن الليل أوشك أن ينتصف ولم تظهر.. في طريق عودتي مررت على دارها، رفعت بصري ناحية نافذتها وجدتها مغلقة والظلام يقبع خلفها.. ربما تكون نائمة.. ربما..

أيُعقل هذا؟ لم تعد حتى الآن.. ما زالت الظنون تتلاعب بي.

مرت أيام لم أعد أراها ولم تظهر، لكنني أبصرت ذات ليلة غريبًا يخرج من دارهم ووالدها يودعه بحرارة.. بعدها سمعت أنها تستعد لتُزفَّ لهذا الغريب.. صُعقتُ.. أيكون هذا هو الوفاء منها وهي تعلم أني أحبها بجنون؟!

رأيتها عائدة ذات ليلة.. اعترضت طريقها أسألها.. كانت صدمتي عندما أكدت صحة هذا الكلام.. صرخت في وجهها:

«ألا تعلمين أني أحبك»؟

أشاحت بوجهها عني قائلة:

«إلى متى سأظل أنتظرك؟ لقد طال الانتظار»..

«لكني ما زلت أحاول إقناع الأهل.. وحبي لـك قـادر علـى مواجهـة كل العواقب».

ضحكت ساخرة:

«الحب وحده لا يكفي».

قلت بدهشة:

«ماذا تقصدين؟».

«لقد تأخرت ويجب أن أعود وليس مهمًّا أن تفهم الآن، لكن صدقني الحب وحده لا يكفي».

وقبل أن تمضي التفتت ناحيتي قائلة:

«لعلمك، خطيبي ابن تـاجر ثـري ويمتلـك عقـارًا وسـيارات أحـدث موديـل بخـلاف أرصـدة البنـوك.. أنـت إنـسان طيـب وسـوف تقابـل مـن تستحقك، لكن كما قلت لك الحب لم يعد كافيًا في هذا الزمان»..

عشت أيامًا عصيبة والغيظ يملأ صدري تجاه من دهست حبي وسؤال يطاردني: هل الحب لم يعد كافيًا؟

زاد من هدوئي وارتياحي النفسي عندما رأيت الرضا في عيون النـاس تكاد تهنئني على أن تخلصت من هذا الحب.

26- هذا المساء

هذا المساء قررت العودة، استجمعت قواي وصبابة أحلامي القديمة ونهضت أنفض عن كاهلي خطايا ذكريات قديمة انتشلتها من دروب وحطام الشقاء.. هذا المساء قررت فتح صفحة بيضاء أسطرها بنقاء بحثًا عن الشفاء، أطوي صفحاتي التائهة.. أضع حدًا لطموحات طائشة عاشت في براثن الأوغاد وكانت مرتعًا للأوهام.

يأتي هذا المساء ونسمات جديدة تجتاحني وتراودني، ضحكات طفولية تداعب الضياء.. الأحزان وحدها دواء انفرط معه عقد الصمود.. هذا المساء كان لا بد من قرار قبل أن يبدأ النهار وتضيع معالم الطريق وتنهار ملامح العودة، وتبقى الآهات أسيرة الظلمات.. الآن نختار.. غدًا قد تتوحش القيود وتنكشف الأسرار.

بدأت رحلة العودة بإصرار، ورغبة جامحة في عدم الانتظار.. فالقرار قد ينهار في لحظة تسويف واستكبار.

أمضي وخطواتي تلتهم الطريق.. يطاردني التعب.. وسواس يجذبني للتقهقر، أجاهد.. لعل وعسى.. في الأفق يجثم الظلام على الكون

ساخرًا.. أبحث عن نسمات تحدٍّ واليأس أمامي في رقصة غانية تدعوني أن أرتمي في أحضانها.

أشعر بثقل خطواتي.. أتعلق بصبابة صبر بدأ ينفد وأمواج الإحباط تلاحقني.. أتخبط وقواي تنهار.. أبحث عن طوق نجاة.. أصرخ مقاومًا تحاصرني ضحكات السخرية.

أرى في النساء نجومًا تزينت على غير العادة وبدت كأنها في حفلة من حفلاتي الطفولية الفاتنة.. نظرت إليها ومن معينها استخلصت رحيق صبر جديد يبدد آلامي.. رأيت ريح فجر مقبلة.. قالوا إنك في ضلالك القديم قلت: دعوني أعُد لضلالي القديم.

في هذا المكان سأعود لضلالي القديم.. لذكرياتي الطفولية.. لمكاني الذي غمره اليأس ونهشته حماقتي.

لن يمضي هذا المساء إلا وحطمت كل الأوثان لتعود الأزهار تملأ الأفنان، وتغرد طيور البستان.. هذا المساء هو كل عمري ونظراتي ترسم بزوغ فجر جديد ليتني ما فرطت في كل ما مضى، لكن الآمال لا تعيش في كل مساء.. تحتاج لمساء يبعثها من جديد.

يا مسائي لا تدعني أسير الندم، فقد شربت حتى الثمالة وآن الأوان

لتحطيم آلهة الغيبوبة، وما مضى قد يعود إذا رحل الدجى وتنفسنا رحيق الضحى.

في كل مساء سأتذكر هذا المساء بذكرياتي الطفولية.. سأعيش أقاوم كل طوفان، فربما لا يأتي مساء جديد، وتضيع كل الفرص وأظل أتخبط في ضلالي القديم.

27- حمار الأمير *

مرض حمار الأمير مرضًا شديدًا، وبات الناس في قلق وخوف على صحة الحمار، وتوافدوا على قصر الأمير يطمئنون، داعين الله أن يشفيه ويعافيه، راجين من كل الناس الدعوات للحمار بالشفاء العاجل، وأن يعود سالمًا بعد ترقيع صحته ليملأ الدنيا بهجة كما كان، فهو عشقهم الأبدي.. به تغنوا في كل مناسبة، وعلى الرغم من حماقته نصَّبوه الأكثر ذكاءً، وعلى الرغم من قبح منظره وهزاله صار لديهم عنوانًا للنشاط والأناقة، أهوج يتميز بالبلادة لكنهم جعلوه رمز الوداعة والرومانسية..

ذات يوم أقاموا له «ماراثون»، ولأنه أحمق فقد استدار للخلف عكس السباق، فهلل الناس وأعطوه الجائزة الكبرى، بل قام عم أيوب ليعلن على القوم: لقد فُزنا في حرب الخوازيق.

ما زالت صحة الحمار في تدهور.. الناس في غمرة القلق والترقب لحالته وصارت قنوات وبرامج الـ«توك توك» تغني سيمفونية: «تعاليلي يا بطة».

---

* كُتبت خلال أحداث مجلس الوزراء

اقترح زعيم حزب البرسيم الوطني أن تتم الاستعانة بحمار جديد، تعالت الأصوات تتهمه بالإلحاد والغباء، مطالبين بترحيله إلى معسكر الفرنجة.

أما زعيم النهيق القومي فقد دعا إلى مليونية في الميدان الشهير من أجل مساندة الحمار والدعوة له بالشفاء..

وبات إخوان الكمون حائرين، يفكرون، يتساءلون: هل يشاركون في المليونية؟ لكن مرشدهم خرج على القوم يدعو إلى الانتخابات أولا ثم الحديث عن صحة الحمار.

لكن الإخوة في حزب الوز خرجوا للميدان يستعرضون، رافضين المساس بالحمار أو الدعوة لقيام دولة على نظام الملوخية، كما يريد السادة المنيلين وشباب رقصة 6 ديل.

أما إعلام العشة فما زال يرقص على أنغام اللي يتجوز أمي أقولُّه يا عمي.

أما الأستاذ خازوق كماشة، فقد راح يصرخ في قناته «الأربعين حرامي» داعيًا طوائف الشعب إلى الخروج إلى ميدان المهلبية لمبايعة ومباركة الأمير، داعيًا سيادته إلى الضرب من حديد على يد من تسول له نفسه

المساس به أو بالحمار، متهمًا الشعب بأنه يجهل طريقة تزغيط البط وأنه لا يعرف ثمن حزمة البرسيم.

أما إخواننا في منتجع سلطة طرة فالسعادة تدب في أوصالهم، قائلين: بحبك يا حماري.. ونفس الحال بالنسبة للمنقوع الذي تحوَّل بين يوم وليلة من اخترناه وبايعناه إلى خلعناه وحبسناه.

أما الأمير فقد مضى في طريقه وضحى بعم شفشق الطيب وأحضر من الثلاجة عمنا رياض المنفلوطي بعد سنوات طويلة من تجميده، رافضًا مطالب البعض بالاستعانة بالمعلم برعي فتشني فتش..

وما زال الجدال قائمًا والحمار حائرًا والأمير يعاند.. وقوى الشعب ما زالت تتصارع في الحلبة.

28- عذاب السنين

أنا القاتل سيدي.. أرجوك لا تسألني ولا تمهلني.. أصدر حكمك فورًا.. دعهم يطوقوا عنقي بحبل المشنقة بلا رحمة أو شفقة.. سيدي خلصني من عذابي وأطفئ ناري.. فأنا لا أطيق.. تعبت وحان وقت الراحة من دنيا العذاب والخروج من رحم الشقاء ويكف لساني عن تذوق مرارة العناء..

كانت كلمات حجازي – الرجل الذي شاب مبكرًا – كتلة من الأوجاع والأشجان.. يقف في القفص يهز قاعة المحكمة بصراخه وآهاته.. الدموع والهموم أطفأت بهجة حياته.. حولتها لظلام كريه.. سوط عذاب يلاحقه بلا هوادة.. وكأن الحياة تعاقبه على فقره.. فعلى الرغم من رضاه عن قدره كعامل يومي في شركة، لكن الظلمة اشتدت مع تصفية الشركة وفصل العاملين.. جهله أوقعه في شرك خداع المشتري الجديد للشركة.. وقَّع على أوراق اتضح فيما بعدُ أنها تنازل منه عن جميع مستحقاته ولا يحق له المطالبة بمعاش.. اسودَّت الدنيا وضاقت به الأرض وأوصدت الأبواب في وجهه.. وكيف للجسد الآمن أن ينجو من طوفان الآلام والأوجاع؟ حتى

المحيطـون بـه لم يـدعوه وشـأنه.. ينفخـون في النـار كـي يزيـد لهيبهـا.. صرخاته بلا صدى.. زوجته أشواك برية يتقلب عليها.. لا يكف لسانها عن طلبـات لا تنتهـي.. ومعايرتـه بملحمـة ضـنكه وبؤسـه.. ذابـت قـدماه مـن البحث عن أي عمل.. حسد الكلب يومًا عنـدما رمـى الجـزار للكلـب عظمـة بينما وقف يتفرج.. وقف أمام جزار يتذكر شيئًا اسمه اللحـم.. تخمـرت في ذهنه فكرة التسول.. فشل.. حتى في الانتحار فشل في التنفيذ.. علـق الحبـل في سقف حجرته لكنه انقطع.. يعود في آخر المساء منهك القوى يـدعو الله أن يكون النوم قد غلب زوجته وأولاده حتى يرحموه ويدَعوه.

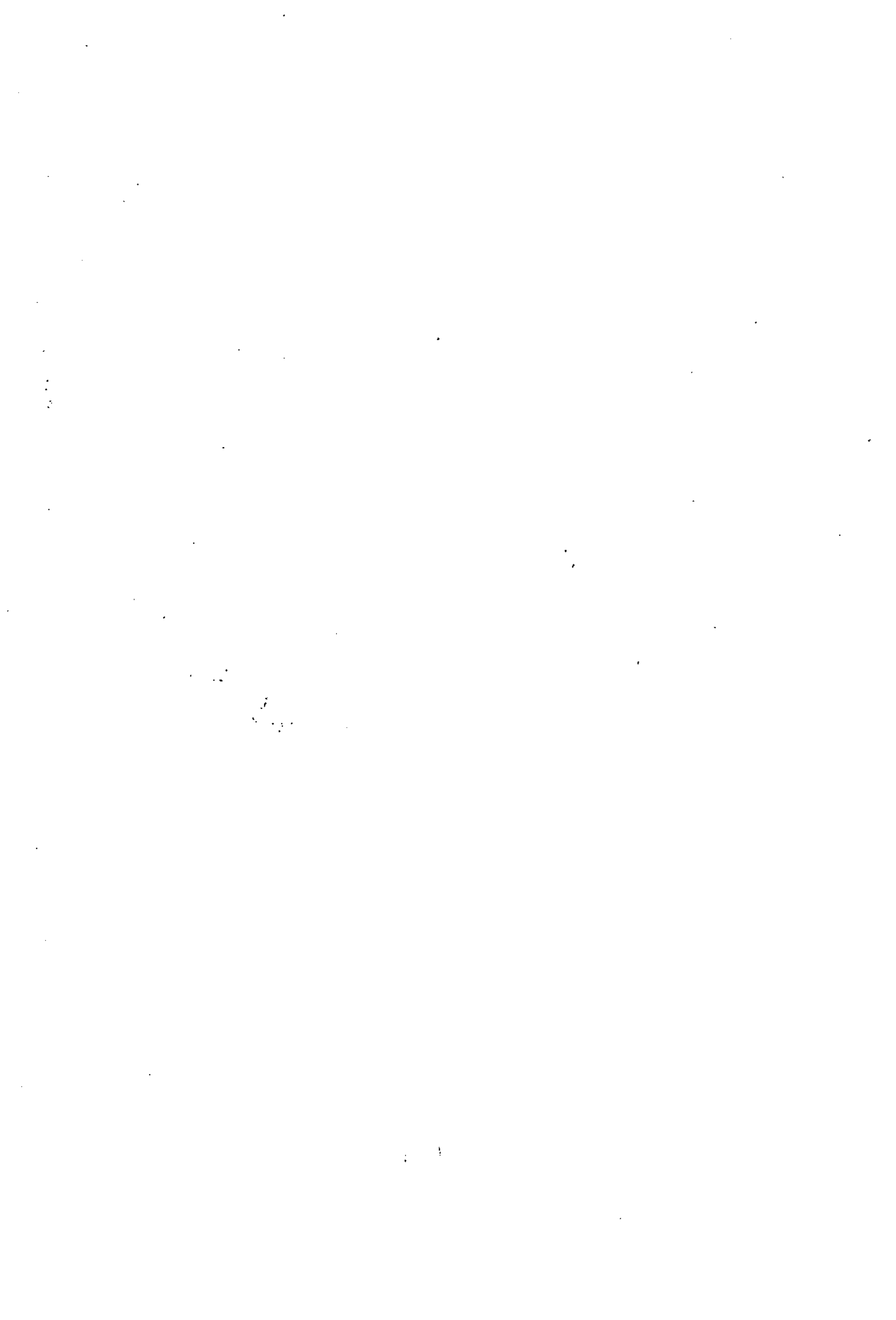
تساوت لديه ملامح الرضا واليأس.. الرضا لا يأتي بجديـد، واليـأس لا لون له ولا طعم.. تمنى الموت.. انتظره على رصيف القنوط، لكـن يبـدو أن الرحلة طال أمدها ولا ترحم من يرنو إلى نهايتها.. أحيانًـا يبـدو كتلـة مـن نار الهموم، وأحيانًا أخرى كتلة من ثلج قطـبي.. تـساوت الألـوان وانطفـأت الأركان وذبلت زهور البستان.

في لحظة غليـان فـارت كـل ظلمـات القهـر واجتاحتـه نوبـة صـراخ وأنين، بادل زوجته النواح والنشيج وتعالت الصرخات والآهات وكـل ألـوان التمرد والعـصيان.. طفـرت في ذهنـه فكـرة الخـلاص.. النهايـة الحاسمـة.. تجمعت أمامه كل صور الماضي التعيس.. صرخ في وجـه زوجتـه: ابتعـدي..

ابتعدي.. لكنها واصلت وصلة سبابها ومعايرتـه.. في لحظـة حاسمـة الـتقط السكين.. غابـت الإرادة، وطغيـان عمـى البـصيرة اجتاحـه.. الكلمـة العليـا طعنة نافذة أعقبتها طعنات غائرة وسط صـراخهما.. هـوت زوجتـه صـريعة تتفجر الدماء من كل أنحاء جسدها.. زفرة الانتصار انطلقـت مـن جنباتـه.. نخب نشوة الزهو لازمـه وقـد خـرج إلى الـشارع يحمـل الـسكين.. يـصرخ: «قتلتها.. قتلتها».

الآن في قاعة المحكمة يطلـق صـرخاته يـشعر بحـنين الرضـا، علـى الرغم من عظم جريمته وتلك الوحشية التي لم تكن سمتـه يومًـا مـا.. سـؤال يراوده يخفف آلامه: أليس من حقنا قتل الأفعى لنتقـي شـرورها؟ لكـن آلام الماضي تقض مضجعه وعذاب السنين مرارة في حلقه تجعلـه يطالـب القاضـي بأن يكون حكمه نهاية حياته حتى يستريح من حياته.

نسمة حنين تراوده أن يعود الزمـان للـوراء ربمـا جعـل مـن الظلمـة نورًا للحنان والأمان.



29- نسمة

خرجت مسرعًا من الندوة قبل نهايتها، فقد لدغتني عقارب الساعة لكي أسرع الخطى وألحق بآخر موعد للقطارات.

تلاعبت بي الحيرة وأغرقني القلق وأنا أقف في الميدان الفسيح وسط «فانتازيا» أضوائه وليله الصاخب أنتظر الأتوبيس المتجه إلى رمسيس.. على الرغم من برودة الجو شعرت باختناق شديد، فلم يبقَ سوى نصف ساعة والمسافة قد تطول عن ذلك وأصل بعد قيام القطار.

أحمل في يدي بعضًا من نسخ كتابي الأخير.. أحضرتها معي في تلك الندوة، لكن الوقت لم يسعفني كي أهديها لبعض الأصدقاء الحضور.

زحام الشارع وفوضى السيارات يزيدان من أوجاعي.. جاء الأتوبيس مزدحمًا كعادته.. انحشرت وسط ركابه تبحث قدمي عن موضع يحفظ توازني ويدي تقبض على كتبي.. وقفت بجوار مقعد تجلس عليه سيدة عجوز وشابة جميلة لاحظت ارتباكي فمدت يدها مبتسمة تحمل عني كتبي.. ناولتها وبادلتها الابتسام ونظرات الثناء.. الأتوبيس يتحرك كالسلحفاة وسط الزحام المستفز وعقارب الساعة تجري بلا هوادة..

استسلمت لنسمة يأس راودتني.. زاد ضيقي وحسرتي.. أيقنت أنه من المحال اللحاق بالقطار.. انتشلتني نظرات الفتاة إلى كتبي تتفحص الغلاف والعنوان.. رفعت رأسها بابتسامة ملائكية تستأذن كي تفتح الكتب.. أومأت رأسي بابتسامة رضا.. تستعرض صفحات الكتاب.. تطالع بعض الأسطر.. جلست بجوارها بعد نزول السيدة العجوز..

ما زالت تقلب الصفحات.. قلت مبتهجا: «عجبك الكتاب»؟ ردت بنظرات إعجاب:

- أكيد.. أنا أحب قراءة القصص والروايات.

- أنا المؤلف.

أطلقت زفرة دهشة وتقدير:

- معقولة.. حضرتك كاتب؟

أومأت برأسي بنعم وأنا أُبحر في ابتساماتها العذبة.. ردت قائلة:

- جميل وفرصة سعيدة.

- الكتاب الذي في يدك هديتي لك.

ضحكت بعفوية:

- لكنك لا تعرفني..

- ليس شرطًا.. نحن نقرأ إعجابًا منَّا بما يحتويه الكتاب، على الرغم من أننا لا نعرف المؤلف.

ما زالت الابتسامة تزيِّن وجهها الذي يوحي بصفحة قمرية تتلألأ حسنًا وبهاءً.. ضحكتها زهرة برية يفوح منها الشذا.. نظراتها نسمة صباح صافية.. كلامها أنغام طفل سعيد..

تبادلنا أطراف الحديث.. أخبرتني أن والدها يعشق القراءة، خاصة القصص، وسيفرح كثيرًا بهذا الكتاب.. والدها هو الذي اختار لها أن تدخل كلية الحقوق أسوة بشقيقه المحامي الشهير.. تخرَّجت منذ عام.. تتدرب حاليًّا في مكتب عمها.. تحلم أن تكون محامية متميزة، على الرغم من أن حلمها الأكبر أن تلتحق بالسلك الدبلوماسي، على الرغم من صعوبة ذلك؛ فهي تفتقد واسطة، وعلى الرغم من ذلك ما زال الأمل قويًّا بين أضلعها.. التحقت مؤخرًا ببعض الدورات التي تساعدها في التقدم لاختبارات الخارجية.

تمنيتُ لها التوفيق، مؤكدًا لها ألا تفتر عزيمتها، وأن تواصل بصلابتها وعزيمتها تحقيق أحلامها.

حدثتها عن أعمالي الأدبية والأشياء التي تستهويني في الكتابة..

عن طموحاتي وأحلامي.

طلبتْ أن أكتب لها إهداءً.. سألتها عن اسمها، قالت: «نسمة».

قلت لنفسي: «فعلاً، اسم على مسمى». بينما كان ردي لها: «اسم جميل».

ضحكت وهي تقرأ الإهداء.. باغتتني بقولها: «حمد الله على السلامة».

اكتشفت أننا قد وصلنا إلى ميدان رمسيس.. حزنت.. تمنيت لو كان الوقت قد امتد وتوقفت عقارب الساعة عن دورانها والرحلة طالت عن ذلك.. ودعتني بسيل من الابتسامات ذات العبير والبهجة.. بدت لو كانت بستانًا يشع جمالاً وسعادة.. بادلتها الابتسامات بلا أمل للقاء جديد.. فما أكثر النسمات التي تصادفنا وتتلاشى دون أن تعود.

تابعتها حتى نزلت لتركب المترو متجهة إلى الجيزة حيث تقيم كما أخبرتني.

نظرت في الساعة.. كان موعد القطار قد مضى عليه نصف ساعة.. لا أدري ماذا أفعل.. قادتني قدماي إلى داخل المحطة.. حتى وصلت إلى الرصيف بلا أمل.. أبصرت مفاجأة سارة؛ فالقطار لم يتحرك بعدُ.. سألت

أول شخص صادفني.. أكد لي أن القطار تأخر بالفعل بسبب إضراب بعض سائقي القطارات.. نسمة سعادة اجتاحتني.. ركبت القطار.. استقبلني ضيق وتذمر الركاب من تأخر قيام القطار والتساؤلات تدور: هل سيتحرك أم لا؟ جلست على الكرسي أتنفس الصعداء.. تتراقص أمامي نسمة ربيع غناء ذات بهجة تزيد مهجة القلب سعادة.. لحظات وبدأ القطار يتحرك وسط فرحة وتهليل الركاب.. ما زلت أسترجع لحظاتي مع نسمة أهيم في عالمها.. على الرغم من أنها كانت نسمة صادفتني لتبقى مجرد نسمة هامت حولي ثم فارقتني بلا عودة.



30- لبن أطفال

وقفت في الميدان الفسيح أنتظر قدوم صديقي حسب الموعد المحدد بيننا.. أصوات السيارات وتدافع المارة والباعة تهيمن على المكان.. سيمفونية بلهاء بلا ذوق ولا نظم.. تتداخل الأضواء، تتفاعل لتضفي لمسة جمال مشوَّهة على ظلمة الليل.. أخطو خطوات وأتراجع خطوات.. عيناي تمسحان المكان.. تتفحصان الوجوه.. بحثًا عن صديقي.. أملاً في قدومه، وقفت لحظات أستكشف المعالم من حولي، لاحظت سيدة مغطاة بالسواد لا تُرى لها ملامح أو معالم.. حتى عيناها غطاهما النقاب، تقف أمام الصيدلية الشهيرة في هذا الميدان، تمسك ورقة صغيرة تعترض طريق المارة أو من يدخل الصيدلية، تتحدث معهم وتمد لهم يدها بالورقة.. تتباين ردود الفعل.. منهم من يمسك بالورقة يتفحصها ثم يدخل الصيدلية، وبعد لحظات يخرج يهز رأسه ويُرجع لها الورقة ثم يمضي.. بعضهم يتناول الورقة ويقرؤها ثم يهز رأسه ويمضي في طريقه، والبعض لا يعبأ أو يلتفت إليها.. اقتربت منها يدفعني فضولي لمعرفة ما في الورقة.. عندما وصلت كان شاب قد خرج من الصيدلية ويعطيها الورقة قائلاً: «أنا آسف العلبة بأربعين جنيه، أنا كنت متصور انها رخيصة» ثم مضى.

يتكرر هذا السيناريو.. اقتربت منها أكثر، لاحظتني، اتجهت ناحيتي قائلة بصوت ضعيف:

«لو سمحت حضرتك أنا ابني الرضيع مريض، والدكتور كتب له علبة لبن أطفال وزوجي مريض وليس لنا أي دخل.. ممكن ربنا يكرمك تدخل تشتري العلبة؟ اعمل معروف انقذ ابني من الموت.. ربنا يكرمك ويبارك لك». أصابتني كلماتها بصدمة من الحيرة والتوهان، وسيل من الأفكار أغرقني.. تتراءى أمامي صور ما بين الصدق والكذب.. الحقيقة والخداع.. التسول والعوز.. بدت بلا وجه، مجرد صوت سمعته.. وكيف لي بالحكم وأنا لا أرى ملامح وتعبيرات وجهها، لكن صوتها الضعيف البائس ربما يرنو لشيء ما عجزت عن تمييزه..

أمسكت الورقة.. نظري يتجه ناحية الصيدلية وعقلي تجاه السيدة وقدماي ثابتتان.. لحظة بلا معالم زمان أو مكان وعنوان مجهول.. تقف أمامي كتلة سوداء أشبه بصندوق أسود بصوت يحمل الرجاء.. تذكرت زوجتي وطفلتي.. صوت بكاء الطفل اليتيم جاري يطاردني.. تذكرت أمه ونظرات البؤس والشقاء في عينيها.. تراءت أمامي مفردات الرحمة والإحسان تطاردها صور التسول وادعاء الحاجة والتظاهر بالفقر وشدة الاحتياج.

كان بودي أن أسألها وأستفسر منها أكثر، لكن كيف ترى الكلمات وصفحة الكتاب شديدة السواد؟!

دخلت الصيدلية مترددًا أحمل الورقة تائهًا، لم أنتبه إلا والصيدلي يعطيني الكيس به علبة اللبن قائلاً: «الحساب أربعين جنيه».

خرجت أحمل مرادها.. أمسكتْ علبة اللبن بكلتا يديها وصوتها الضعيف يردد: «ربنا يجزيك كل خير.. ألف ألف شكر، ربنا يبارك في حضرتك يا رب».

ثم مضت في طريقها مسرعة تعبر الشارع تسلك طريقها وسط السيارات المارقة.. عيناي في إثرها حتى ذابت وابتلعها زحام الميدان.

تطارد سعادتي أفكار متفاوتة ومشاهد متباينة، لم أنتبه إلا على صوت صديقي يجذبني من ذراعي مبديًا أسفه على تأخره.

31- سرقتُ مالي

تكـاد الحـيرة تقـتلني، وهـذا القلـق المتزايـد يـداهمني.. والعجـز مصيبتي.. وقلة الحيلة قدري.. همٌ المساعدة يلاحقـني.. لكـنني بـلا طـوق نجاة.

لماذا يا صديقي تطلب مساعدتي؟ كيف أحقق مرادك وأخفف كربك؟

مرضك يـؤلمني ونظراتـك سـوط يعـذبني.. يعجـز لـساني عـن البـوح بأسراري، وحياتي بلا اختياري.. لا أدري ماذا أفعل..

ليتني أغلقت بابي وتهربت منه بلطف، لكن ليس هذا من شـيمي.. قلبي يحمل لك زخماً من مشاعر الود، فأخلاقك قـدوة يحكـي عنـه كـل مـن يعرفك، وكيف لي ألا أقف معـك في محنتـك وأنـت تـستعد لإجـراء عمليـة خطيرة وما تتطلبه من نفقات باهظة.. لجأت إليَّ تطلب العون بحكم تقاربنا والمحبـة الـصادقة الـتي تجمعنـا.. عجـزت عـن الـرد.. أومـأت برأسـي بالموافقة.. وأنا أعلم أنـي لا أملـك طلبـك.. فكـرت واحـترت في الحـل، هـل أقترض من أحد؟ هل أقص على والدي ذلك لعله يتعاطف ويعطيني؟ لا وقـت للتفكير أو الاعتذار، فقد وافقت ولا بد من تجهيز المال فورًا.

شرك وقعت فيه بيدي.. كان من الممكن الاعتذار بلباقة، ولا ريب أنه كان سيتفهم موقفي، فأنا لو باستطاعتي لن أتأخر ولن أتواني في إجابة لهفته.. تتباين مشاعري أبحث عن حل.. فكرت مليًا.

تذكرت أن لي دفتر توفير أدخر فيه أموالاً ومن الممكن أن أسحب المبلغ الذي طلبه صديقي.. لكن كيف لي بذلك والدفتر بحوزة أبي الذي فقد ثقته بي بعد اكتشافه أنني سحبت مبالغ من الدفتر دون أن أستفيد منها فأخذ الدفتر واحتفظ به حتى يضمن ألا أفقد مدخراتي؟ كيف لي أن أقنع أبي بأن يعطيني الدفتر؟ وماذا ستكون إجابتي عندما يسألني عن السبب؟ مهما كانت المبررات والحجج سيرفض.. حتى لو قلت الحقيقة فهو يكره مبدأ السلف وكم من مرة حذرني من ألا أقرض أحدًا.

لا حل أمامي سوى الحصول على الدفتر.. طوق النجاة من تلك الورطة.. تاه عقلي واحتار فكري.. في ظلمة الحيرة أبحث عن ضياء يرشدني لحل.. هداني شيطاني أن أسرق دفتري دون أن يشعر أبي.. السبيل الوحيد للخروج من المأزق.. وعندما أسترد نقودي كما وعدني صديقي بعد شهر أودعها مرة ثانية في الدفتر ثم أضعه في مكانه دون أن يكتشف أبي.. بدأت في البحث عن خطة للسرقة دون أن يشعر بي أحد.. يحتفظ بالدفتر في مكتبه المغلق والمفاتيح دائمًا بحوزته.. عسير أن تقع في يدي.. فكرت في

حل.. في خطة.. الوقت يـداهمني وصديقي ينتظرنـي.. آن الأوان كـي يـدفع تكاليف العملية.. مـسكين، الـداء داهمـه في أوج شـبابه ولا بـد مـن إجـراء عمليـة جراحيـة فـورًا حتـى لا تتفـاقم حالتـه.. وكيـف لـه بالمـال ليـسدد التكاليف الباهظة؟! يكابد كثيرًا.. يكفيه ألم السقم فكيف له بألم الهم؟!

راقبت أبي.. ألاحق تحركاته.. حتى سنحت الفرصة، خرج للـصلاة في المسجد، نسي المفاتيح.. فرصتي.. فتحت المكتب.. فتشت في أوراقه حتـى عثرت على ضالتي.. فرحت وزادت غبطتي وموظف البريد يعطيني النقود.. انطلقت إلى صديقي ناولته غوثه بسعادة طاغية.. تعانقنا بكل مشاعر الأخـوة والصداقة.. غمرني بدموعه وكلمات ثنائه وتقديره لموقفي.

في الطريق رأيت في الـضباب ملامـح أبـي الغاضـبة.. لـو اكتـشف مـا حدث.. هربت أسترجع ملامـح صـديقي وغبطتـه.. أحمـل الأمـل أن يـصدق صديقي ويعيد لي مالي حتى أودعه في دفتري دون أن يكتشف أبي.. لا شيء سوى الانتظار.

32- مينا في الجامع

على الرغم من برودة الجو وتلبد السماء بالغيوم وما يثيره في النفس من الهموم، أصرت جاكلين على الخروج لشراء احتياجاتها من السوق ومعها طفلها مينا ذو الأعوام الأربعة، وهو ما جعلها تحرص على أن تلبسه ثيابًا شتوية ثقيلة تغطي جسده، فلا يبدو سوى وجهه خوفًا من البرد وتبعاته.

كانت جاكلين بحكم إقامتها في مدينة لها عادات وتقاليد في الاحتشام تحرص على ارتداء الحجاب أسوة بالنسوة في المدينة.

في السوق المزدحمة تطبق بقوة على يد مينا.. تسحبه.. تشق طريقها وسط الزحام.. تطالع المعروض وتتفحص ما تود شراءه.. صخب الباعة وتدافع المارة يزيدان من زخم الزحام.

سيارة نقل تشق طريقها في ممر السوق الضيق.. مما جعل الناس تتدافع يمينًا ويسارًا كي تخلي لها المكان.. الباعة يتراجعون للخلف ببضائعهم.. حالة من الهرج أصابت المكان مع تقدم السيارة.. الناس تصطدم بجاكلين التي تحاول جاهدة أن تواصل سيرها.. تحكم قبضتها على يد

مينا، لكن فجأة مع التدافع والتزاحم تنفصل يد مينا عن يدها.. يدها تتحرك تبحث عن مينا.. كالبرق الخاطف ابتلع الزحام مينا.. تنظر حولها.. عيناها مارد يمسح المكان.. تقلب البصر حولها.. تتفحص الوجوه.. تبحث عن طفلها.. تطلق صرخات مدوية.. تضرب بكفيها على خديها.. تهز أرجاء السوق.. تتواصل صرخاتها مع يقينها بفقد مينا.. أكوام من البشر تتجمع حولها.. تحاول مشاركتها في البحث.. تندفع.. تفض الزحام.. تفتش عن طفلها وصراخها نار يزداد لهيبها.. تولول ويعلو نواحها.. لكن بلا جدوى.

كان مينا قد جرفه طوفان الزحام حتى استقر أمام باب الجامع.. يبكي بحثًا عن أمه.. تلقفته يد رجل عجوز.. سأله عن سبب بكائه.. عن اسمه.. لكن لم يجنِ منه سوى البكاء والخوف، لم يجد الرجل حلاً سوى الدخول به إلى الجامع، حيث وجد الشيخ أحمد يُحفِّظ بعض الصبية آيات من القرآن الكريم.

احتضنه الشيخ أحمد بعد أن عرف قصته.. غمره بقبلات من الحب والحنان.. لكن الخوف والبكاء يلازمان مينا.. حاول أن يعرف منه أي معلومة تقوده لمعرفة أهله.. لكن بلا جدوى.. أجلسه بجواره يعطيه بعضًا من قطع البسكويت.. لكن مينا ما زال يبكي مذعورًا.. لم يجد الشيخ أحمد

حلاً سوى أن يمسك بالميكروفون يـذيع عـن وجـود طفـل في الجـامع موضـحًا ملامحه وثيابه.. هدأ روع الطفل قليلاً وكفَّ عن البكاء عندما اسـتمع لـتلاوة الشيخ أحمد وبدأ يردد مع الصبية ما يتلوه الشيخ.

كانت جاكلين لا تزال تصرخ، تسعى في السوق بحثًا عن طفلها حتى جاءت البشرى بأن هنـاك طفـلاً في الجـامع تم العثـور عليـه والـشيخ أحمـد ينادي في الميكروفون.. انطلقت كالحصان الجـامح.. تتخـبط في النـاس وتـشق طريقها وسط الزحام.. تكاد تهوي أحيانًا، تعـاود الجـري حتـى وصـلت إلى الجامع.. دخلت مسرعة لتجد مينا بين يدي الشيخ أحمد.. همت أن تـصرخ فرحة بلقاء طفلها.. لكن هول المفاجأة أخرسها فوقفت في حالة ذهـول وهـي ترى طفلها يردد خلف الشيخ آيات من القرآن الكريم.

عندما رآها مينا قفز يجـري نحوهـا تحتـضنه بلهفـة وشـوق.. قـام الشيخ واقفًا يرحب بها بابتسامة عريضة تزين وجهه الوقور:

«الحمد لله ابنك بخير.. بسم الله ما شاء الله عليـه.. صـوته جميـل في تلاوة القرآن.. لماذا لا تخضرينه لكي يحفظ مثل زملائه؟»..

ازدادت دهـشتها وفتحـت فاهـا مـن الـذهول الـذي داهمهـا وعقـد لسانها.. حملت طفلها وحالة مـن التوهـان والارتبـاك تـسيطر عليهـا، ممـا

جعل «الجوانتي» يسقط من على يد مينا.. التقطه الشيخ أحمد من على الأرض ومد يده كي يلبسه للطفل.. اصطدمت عيناه بوشم الصليب على يد مينا.. ذهول داهمه.. ارتباك قيَّده.. حرج طوَّقه.. فقالت جاكلين محاولة التخلص من هذا الموقف:

«شكرًا على اعتنائك بولدي مينا»..

رد الشيخ أحمد بدهشة بالغة: «مينا»!!

ابتسمت جاكلين تضم مينا بسعادة لتعود الابتسامة ترتسم على وجه الشيخ أحمد قائلاً لها:

«حافظي عليه.. ربنا يبارك لك فيه».

ردت بكلمات الشكر والثناء.. مضت عائدة.. عاد الشيخ أحمد إلى الصبية لتقع عيناه على البسكويت فيلتقطه على الفور ويلتفت مناديًا على مينا.. تقف جاكلين على باب الجامع تستوضح الأمر.. تقدَّم الشيخ نحوها بابتسامته العذبة يعطي مينا البسكويت فأخذه بعد أن زالت عنه الرهبة والخوف.. مضت جاكلين في طريقها وعاد الشيخ يتلو على الصبية سورًا من القرآن الكريم وثمة ابتسامة رضا تتواصل بينهم.

33- آخر فرصة

في غربتي أشعلت شمعتي وانزويت.. بعد أن أحكمت غلق نافذتي.. على الحائط برواز يحمل شهادتي الجامعية.. ربما تعطيني الأمل وتزرع الثقة بداخلي.. ربما يؤلمني أن تصبح مجرد ورقة داخل إطار.. في الخارج هواء بارد يحمل عواصف وأمطارًا تضرب النافذة بكل قوة.. لم تصمد كثيرًا.. انفتحت.. انطفأت شمعتي.. الهواء أسقط البرواز ليتحول إلى أشلاء.. تطير شهادتي.. تخرج من الباب بعد أن قهره الهواء وفتحه عنوة.. أسرعت خلفها كي أمسك بها.. في الخارج ظلام دامس أضاع المعالم والملامح، وطوى في صفحاته كل الآمال.. أهيم في الشوارع أبحث عن الشهادة.. لا أثر لها.. قررت العودة.. تاه الطريق.. بات الظلام وحشًا يطارد كل طوق نجاة.. طرق ملتوية تتداخل تزيد الأمر تعقيدًا..

البيوت أبوابها موصدة.. أنادي.. أستغيث بأصحابها.. لا مجيب.. في الداخل جالسون.. ينعمون بالدفء لا يعبأون بأحد.. لا يريدون أن يدخل عليهم أحد.

تاهت ملامحي وبدأ اليأس كالشيب يغزو شعري.. دموعي تناجي

المطر.. أتساءل: إلى متى أظل هكذا؟

أين المستقر؟

أفكار سوداء تطاردني، وقدماي تمضيان بلا كلل حتى وصلت فجأة إلى محطة القطار.. كان قطار الدرجة الثالثة بأبوابه ونوافذه المحطمة يقف يتأهب للانطلاق، وأكوام من البشر تملؤه عن آخره.

انتبهت على صوت يناديني، نظرت نحوه فإذا بشاب يطل برأسه من الشباك.. ينادي أن أسرع بركوب القطار قائلاً:

«اركب بسرعة.. إنه آخر موعد للقطارات هذه الليلة».

ترددت في إجابة طلبه.. كان هاتف يناديني:

«ارضَ بقدرك ولا تتردد.. اركب، ربما كانت آخر فرصة»..

كان القطار قد تحرك وابتعد عني أمتارًا قليلة.. أسرعت خلفه أتشبث بآخر أبوابه، ولسان حالي يقول:

«فعلاً.. ربما كانت آخر فرصة».

34- حكاية من أرض الثورة

دخلت الفصل.. سألت تلاميذي عن أي شيء يريدون أن أتحدث عنه.. طلبوا أن أكلمهم عن الثورة.. قلت: عن أي شيء تريدون؟ هل أحدثكم عن الشباب وعزيمتهم وعظمة شعب مصر العظيم، أم أتحدث عن ميدان التحرير بصورته الرائعة أيام الثورة؟

قام تلميذ ذكي قائلا: «مللنا من التحدث عن هؤلاء.. حدِّثنا عن جذور الثورة.. كيف لشعب أن يثور ويخلع طاغيته وحاشيته؟ نريد معرفة بذرة البداية لهذه الثورة والثورات الأخرى التي سبقت ذلك في مصرنا الحبيبة»..

ابتسمت لقوله وفصاحته فقلت لهم: « تريدون سر هذا الشعب الذي أبى الظلم و الفساد و هب في لحظة كي يهدم أوثان الطغيان بعد أن نفد وعاء صبره.. وكيف للعالم أن يدهش من ذلك.. هذا الشعب العظيم تجري في عروقه الثورة.. ضاربة في جذور التاريخ منذ نشأة حضارته العظيمة على ضفاف هذا النهر الخالد.. إنه لتحضرني الآن قصة سنوحي.. ذلك الثوري المصري القديم»..

بدا الشغف والإنصات على وجه تلاميذي ينتظرون أن أسترسل وأحكي لهم قصة هذا البطل المصري الأصيل.. أخذت نفسًا عميقًا وانطلقت أقص عليهم رائعة الشاب المصري القديم سنوحي:

«تتلألأ أشعة الشمس.. ترسل نورها الأبيض على تلك الواحة الصغيرة القابعة في وسط الصحراء.. خضراء وسط لوحة صفراء.. البساطة عنوانها.. المودة روح أهلها.. الزراعة منهجها.. النجاح عنوانها.. على الرغم من أن حاكمها ديكتاتور تحوم حوله بطانة سوء تزين له مزيدًا من الظلم والفساد وتهلل لظلمه وتساند جبروته.. وعلى رأسهم رئيس الشرطة الذي يحمل جبالاً من الكراهية في قلب كل إنسان في الواحة.

لكن الجميع صامتون.. خائفون من بطش هذا الحاكم وظلم حاشيته وفسادها..

في تلك الواحة كان هناك شاب اسمه سنوحي.. عُرف منذ صغره بالصدق والشجاعة ورفض الظلم.. لهذا لم يكن لسانه يتوقف عن الحديث.. طالبًا أن يهب الجميع من أجل الوقوف في وجه الظلم والثورة على الظالمين، يمر على أهل الواحة البسطاء وزملائه الفلاحين يحثهم على الثورة على الطغيان.. يطربون لحديثه يعشقون ثوريته لكنهم قانعون خائفون.. يشفقون عليه من بطش سادتهم.

ثوريته جعلته طموحًا يبحث عن الأفضل دائمًا.. وقعت عيناه على ربوة عالية جرداء لا تصلح للزراعة.. فأرضها مالحة تقتل أي نبات وعسير أن تصل إليها مياه الري نظرًا لارتفاعها.

استدعى التحدي الكامن بداخله وشرع في استصلاح هذه الأرض.. ضحك وسخر أهل الواحة – بسطاؤها وأثرياؤها – كيف لتلك الأرض الجدباء أن تخرج زرعًا؟! لكنه ازداد تصميمًا ورد عليهم بأنه قادر على تحويلها إلى جنة.

شرع سنوحي في استصلاح هذه الأرض وابتكر نظام ري فريدًا لكي تصل إليها المياه.. واستمر يعمل ويكافح من أجل تحقيق هدفه.. تساعده زوجته على الرغم من آلام الحمل.

جاره الثري صاحب الضيعة الكبيرة أحد كبار الأثرياء ممن ينعمون بالفساد في بلاط الحاكم سخر من صنع سنوحي وقال إنه فلاح سانج يضيِّع مجهوده هباءً.

أيام قلائل وتحقق حلم سنوحي وكسا اللون الأخضر تلك الأرض القاحلة ونظر إليه الجميع نظرة انبهار وتقدير لعبقريته التي حوَّلت أرضًا جرداء إلى جنة خضراء وقد مدها بالمياه على الرغم من ارتفاعها، مما جعل

الناس يقبلون أكثر على سنوحي يستمعون لحديثه ودعوته إلى الثورة على الحاكم وحاشيته.

عندما رأى جاره الثري تحوُّل الأرض إلى وضعها الجديد تبدل إعجابه منذ الوهلة الأولى إلى غواية أن تصبح ملكًا له.. فهو الأحق بها من هذا الفلاح السانج — على حد تعبيره.

زاد من أطماعه أن أخبره أحد مساعديه أن تلك الأرض يمكن الاستيلاء عليها لشق قناة تمر من خلالها تروي أرض هذا الثري وتوفر له كثيرًا من الجهد والمال.

بعث الثري مساعده إلى سنوحي يعرض عليه شراء هذا الأرض بأي ثمن يحدده سنوحي ولو أراد أرضًا بديلة وضعف المساحة والقطعة التي يختارها.

لكن سنوحي رفض هذا العرض فلم ييأس الثري وزاد من إغراءاته وتعددت المراسلات.. لكن سنوحي على موقفه ثابت.

احتار الثري في أمر سنوحي كيف يقنعه بترك هذه الأرض.. كلما أرسل له يزداد إصرارًا وعنادًا..

بينما سنوحي بجانب حبه واهتمامه بأرضه ما زال على ثوريته

يخطب في الناس كاشفاً عن الظلم والفساد.. بل وصل الأمر إلى رفضه ألوهية الفرعون قائلاً للناس:

كيف لإنسان مثلي يأكل ويشرب وينام ويتزوج النساء يدعي أنه إله ويطلب أن أعبده؟ هناك إله آخر يختلف عنّا كثيرًا في الصفات.. فالإله لا بد أن يكون فريدًا لا مثيل له.

بدت الدهشة على الوجوه وازداد الإعجاب بسنوحي.. تتفاوت التعليقات.. تتباين الآراء.. لكنهم متفقون على صدق كلام سنوحي.. لكن ما زال الخوف طوقًا يقيدهم.

توجه الثري إلى صديقه رئيس الشرطة طالبًا منه ضرورة التخلص من سنوحي لكي يستحوذ على أرضه.. لكن رئيس الشرطة رفض المساس بسنوحي؛ لأن ذلك من شأنه إثارة أهل الواحة والاحتجاج على القبض على سنوحي، كما رفض فكرة تبليغ الحاكم بثورية سنوحي لخوفه من فصاحة سنوحي وقدرته على الإقناع.. فقد يتحدث أمام الملك عن أحوال الواحة وفساد الأثرياء وظلمهم والفقر الذي يعانيه العامة.. قد يصدق الملك كلام سنوحي فيجلب المتاعب والصعاب على الأثرياء وينقلب الملك عليهم.

بعث رئيس الشرطة أحد رجاله إلى سنوحي طالبًا منه ترك الأرض وإلا سوف يناله عقاب شديد.. لكن سنوحي وقف ينادي على أهل الواحة

كاشفاً لهم عن التهديد الذي وصله ساخرًا من رئيس الشرطة وتحالفه مع الأثرياء وتستره على الفساد وحماية الظالمين.

عندما علم رئيس الشرطة بما فعله سنوحي غضب غضبًا شديدًا وأقسم إنه سيوقع عقابًا شديدًا عليه.. لكن في الوقت المناسب.

في الوقت نفسه بدأت الناس تستجيب لسنوحي، رافضين أن يكون الفرعون هو الإله.. حتى وصل إلى الحاكم أن هناك شخصًا يدعو إلى الثورة وعبادة إله آخر غير فرعون.. غضب الحاكم وخشي أن يصل الخبر إلى الفرعون في العاصمة واستدعى على الفور رئيس الشرطة طالبًا منه سرعة القبض على هذا الشخص.. ليجدها رئيس الشرطة فرصة للانتقام من سنوحي وأسرع بالقبض عليه..

سخر الملك عندما رأى سنوحي مقيدًا في أغلاله قائلاً:

أنت الذي تنكر أن فرعون مصر العظيم إله؟!

فرد سنوحي بكل ثقة:

نعم.. فلا فرق بيني وبين الفرعون.. هو مثلي يأكل ويشرب وينام ويتناسل ويمرض ويموت في النهاية..

أُعجب الحاكم بحديث سنوحي.. خاصة عندما علم بمهارته في الزراعة والأرض الجرداء التي نجح في استصلاحها.

فكر الحاكم لحظات ثم ابتسم بخبث وقال: اسمع.. سوف أرسلك في بعثة خارجية لتتعلم المزيد من أصول وفنون الزراعة ثم ترجع وتنقلها إلى هنا وتعلمها لفلاحي الواحة لكي تنهض بالزراعة أكثر وأكثر.. وسوف تكون في رعايتي في تلك الفترة وأتحمل كل النفقات.. وسيذهب معك حرس ومساعدون لك يهتمون بك ويقومون على شئونك.. فأنت في مهمة وطنية.. اذهب وجهز نفسك حتى تسافر غدًا.

وافق سنوحي واستأذن الحاكم لكي يذهب ويجهز حاله ويستعد هو وزوجته للسفر.

لكن الحاكم اعترض قائلاً: اذهب وحدك.. زوجتك ستبقى هنا في رعايتي تعيش مع حريمي في القصر.. لا تقلق عندما تعود ستجدها في أحسن حال.

رد سنوحي معترضًا راجيًا من الحاكم أن يسمح له باصطحاب زوجته.. لكن الملك رفض.. مؤكدًا أنه في مهمة وطنية يجب أن يتفرغ لها دون أن يشغله شيء آخر.

ذهب سنوحي فرحًا حاملاً البشرى لزوجته.. لكنها بدت قلقة عندما سمعت حديثه.. طلبت منه ألا يذهب فربما تكون مكيدة وخديعة من الحاكم يريد بها سوءًا.

لكن سنوحي قلل من مخاوفها وبدد قلقها طالبًا منها أن تجهز حالها لكي تنتقل للمعيشة مع نساء الحاكم في قصره.

استدعى الحاكم وزيره على عجل طالبًا منه ضرورة إحضار رجل يشبه سنوحي تمامًا من جميع الوجوه بحيث من يراه يظن أنه سنوحي دون أن تساوره الشكوك.

فقال الوزير: أمهلني أسبوعًا. لكن الحاكم غضب طالبًا إحضاره خلال 24 ساعة على أقصى تقدير.

وبالفعل عثر الوزير على ضالته وأحضر شبيه سنوحي إلى الحاكم، في الوقت نفسه وفي أثناء تجهيز الموكب الذي سوف يصاحب سنوحي كان الحاكم قد أمر حراسه باحتجاز سنوحي وإخفائه في مكان بعيد دون أن يعلم أحد.

دقت الطبول وعزفت الموسيقى واصطف الناس يشاهدون الموكب ليخرج شبيه سنوحي يركب هودجًا وخلفه موكب من الحرس والخدم.

أيام قليلة وعاد الموكب من دون شبيه سنوحي واندهش الناس يتساءلون عنه.. جاءت الإجابة من حراس الموكب وحسب اتفاق مسبق مع الحاكم: لقد هاجمت السباع الموكب واستطاع سنوحي الفارس الشجاع مصارعة وقتل عشرين منها.. لكن أكبر السباع باغته وافترسه على غرة.

عمَّ الحزن أرجاء الواحة وأعلن الحاكم الحداد.. داعيًا الناس إلى الترحم وذكر أمجاد سنوحي الفارس النبيل.

واستدعى زوجة سنوحي التي حضرت في حالة انهيار تبكي فقد زوجها وآلام الحمل التي تداهمها.. لكن الحاكم خفف عنها وقع الفاجعة طالبًا منها التماسك رحمة بالجنين خليفة سنوحي.. مؤكدًا لها أنها ستظل في قصره وتحت رعايته ولن يتخلى عنها أو عن المولود القادم.. بل سيتولى تربيته ورعايته ويعامله كأنه ابنه تماما.. مؤكدًا أن سنوحي بطل ولا بد من مكافأته وأصدر أوامره بنحت تمثال للبطل سنوحي يوضع في مدخل الواحة تخليدًا لذكراه وبطولاته وشجاعته.

في الوقت ذاته استدعى الحاكم سنوحي من معتقله ليقف أمام الملك مكبلاً بالقيود.. سخر الحاكم منه قائلاً:

من يمنعني منك الآن؟ هل ما زلت تصر على أن الفرعون ليس إلهاً؟

فرد سنوحي بكل ثقة: وهل كف الفرعون عن الأكل والشراب والنوم والزواج من النساء؟

غضب الملك واحمر وجهه: هل ما زلت سليط اللسان كما أنت؟ سوف أقتلك وأفوز بزوجتك.. يكفيك أنني جعلت منك بطلاً في عيون العامة من الناس.

فرد سنوحي: إذا لم يكن هناك مفر من قتلي فأطلب منك أن تدفن جسدي في حقلي.. أرضي التي استصلحتها.

فأومأ الحاكم بالموافقة.. ثم أمر حراسه بأخذه وقتله.

وقبل الاحتفال بيوم، جلس الحاكم مع رئيس الشرطة وكبار رجال بلاطه، وبعد أن لعبت الخمر بالرءوس قال الحاكم: لقد نجحنا في القضاء على سنوحي. فرد رئيس الشرطة: أنا صاحب التدبير.. أعطني زوجة سنوحي فهي امرأة جميلة وأنا أكثر من يقدر الجمال.

لكن الحاكم رد غاضبًا: إنها في قصري وأصبحت ضمن حريمي.

فرد رئيس الشرطة منفعلاً: أنت تستحوذ على كل شيء.. دعك من أطماعك التي لا تنتهي.

فقام الحاكم غاضبًا والشرر يتطاير من عينيه يرمي كأسه بعنف:

هل أصابك مس أو جنون أيها المخبول، أم أن الشراب أفقدك صوابك؟ أنا الذي صنعتك.. هل نسيت ماضيك الملوث؟ أحضرتك وكنت مجرد حارس على بيت المتعة وبإمكاني القضاء عليك في أي لحظة.

خرج الحاكم من المجلس غاضبًا يتوعد ويهدد رئيس الشرطة بالعقاب والانتقام.

في اليوم التالي وفي ساحة القصر التي امتلأت عن آخرها بالناس

ليحتفلوا بتمثال سنوحي.. خرج الحاكم على الناس وخلفه حرسه ورجاله وبجواره زوجة سنوحي تبدو عليها آلام الحمل والحزن الشديد يطوقها وفي الخلف تمثال سنوحي مغطى بستارة..

وقف الحاكم مزهوًا يخطب في الناس يذكرهم بعظمة وشجاعة سنوحي.. ثم أمر حراسه برفع الغطاء عن التمثال الذي بدا فخمًا أبهر الناس بروعته ودقة تصميمه.

تعالت الأصوات والحوارات بين الناس.. كل يبدي إعجابه بالتمثال.. لكن فجأة ومن دون مقدمات تخرس كل الألسنة وتتوقف الناس عن الحركة كأنها تماثيل أو جماد أو جثث لا حراك بها.. كل شخص توقف على آخر شيء كان يفعله: من توقف وفمه مفتوح يضحك.. ومن توقف والشراب على فمه.. ومن توقف وهو يحدث صاحبه.. ومن يرفع يده.. من يجلس.. ومن يمشي.. ومن يقف.. كل توقفت حركته.. سكون وجمود حل بهما.. بينما الأمر مختلف عند زوجة سنوحي التي ما زالت الحياة تدب فيها.

ينظر بدهشة شديدة للوجوه التي تحولت إلى تماثيل من الملك ورجاله والحرس ورئيس الشرطة وكل الحاضرين..

فجأة تسمع صوتًا.. إنه صوت سنوحي زوجها.. تندهش.. تبحث

عن مصدر صوت زوجها لتجد التمثال يناديها.. زادت دهشتها.. كيف لصنم أن يتكلم؟ قال لها بصوت زوجها:

لا تسألي كيف.. كل الناس التي أمامك تحولت إلى أصنام لا تسمع ولا ترى ما أقوله وما أفعله.. اسمعيني جيدًا لم يعد هناك وقت.. لقد خانني هذا الحاكم الوغد وخدعني.

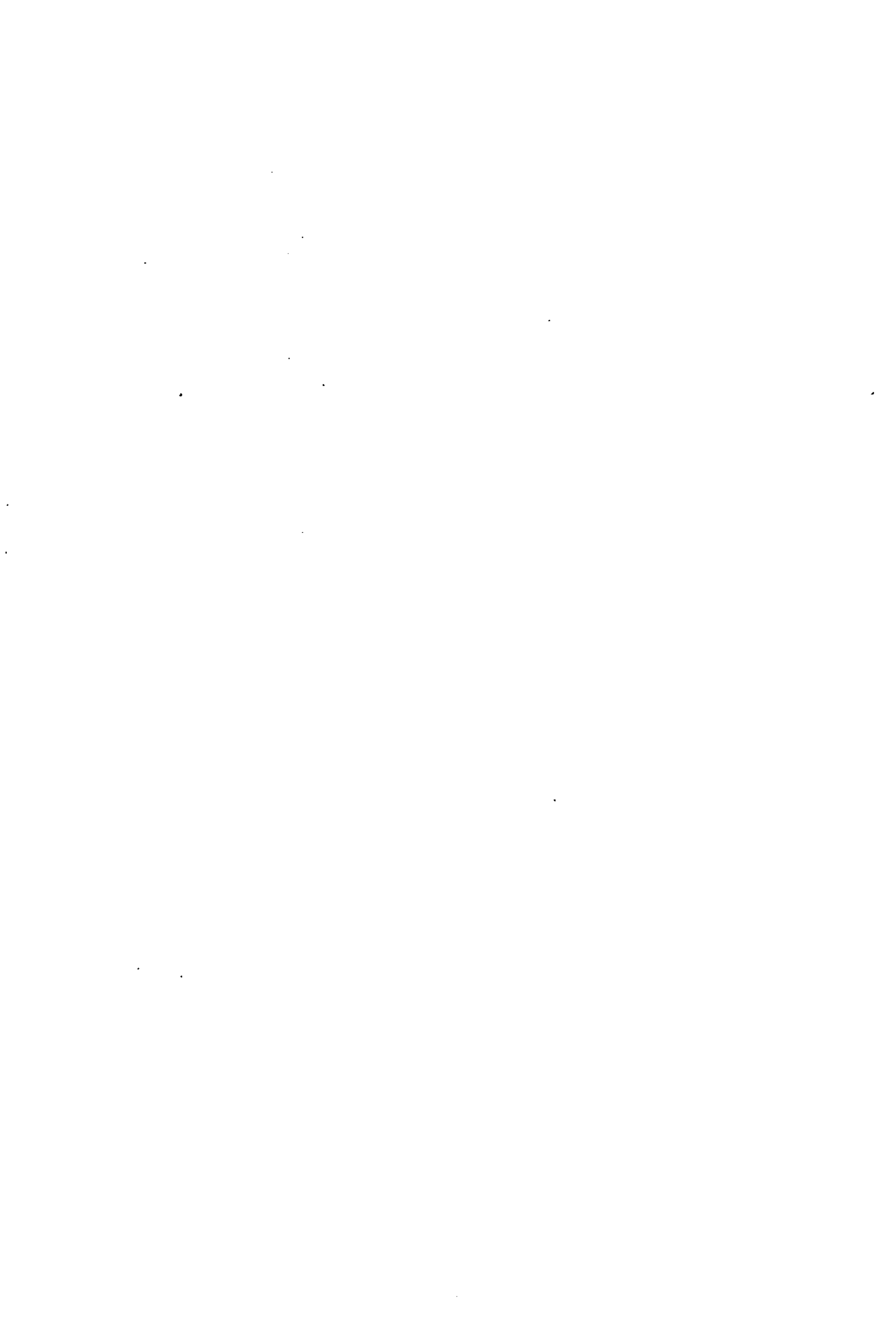
صرخت: كيف؟

رد: ليس مهمًّا الآن.. الأهم أن تعتني بابني القادم إلى الحياة حتى يكبر ويصبح بطلاً حقيقيًّا تفتخر به كل الناس ويأخذ حق أبيه وينتقم له.. لقد دفنوا جثتي في الحقل الشرقي في أرضي التي استصلحتها.. وهي الآن مزروعة قمحًا.. اشتري هذا القمح وقت حصاده واصنعي منه خبزًا.. احرصي كل الحرص على أن يأكل ابني منه وليأكل منه أبناء الواحة الصغار.. فهذا القمح شرب من دمي.. ودمي به كل خصال الشهامة والمروءة والشجاعة والثورة على الطغيان.. فقوى الظلام مهما بغت وطال أمدها ومهما عمرت شجرة الفساد تلك الخصال سوف تكتب النهاية التي ينتظرها الجميع وتشرق بعهد جديد.

توقف وكف التمثال عن الحديث ودبت الحياة في الوجوه الحاضرة

مرة أخرى يتساءلون في دهشة: ماذا حدث؟ الحيرة تطوقهم.. كل يسأل: هل أكثرت من الشراب أم سِنة من النوم أصابتني؟ لكن زوجة سنوحي فارقتها الآلام والأحزان وبدا التصميم وروح التحدي يسريان في أوصالها».

انتهيت من سرد قصة سنوحي وتلاميذي غارقون في الإنصات وكأن على رءوسهم الطير.. في لحظة اندماج مع الأحداث تعلو وجوههم ملامح الإعجاب على سلوك وعظمة المصري الأصيل.. أفاقوا على صوت الجرس يعلن انتهاء الحصة.. وعدتهم أن أواصل معهم الرحلة وأحكي لهم مزيدًا من روائع هذا الشعب النبيل الذي يقطن هذه الأرض الطيبة.



المؤلف في سطور

* محمد صلاح زكريا
* حاصل على ليسانس الآداب علم النفس جامعة حلوان عام 2000.
* يعمل حاليًّا أخصائيًا نفسيًّا.
* صدر له من قبل:

«إنسان في زمن النسيان» – مجموعة قصصية – عام 2005.

«الضائع بين يدي» – رواية – عن دار ليلى للنشر والتوزيع – عام 2011.

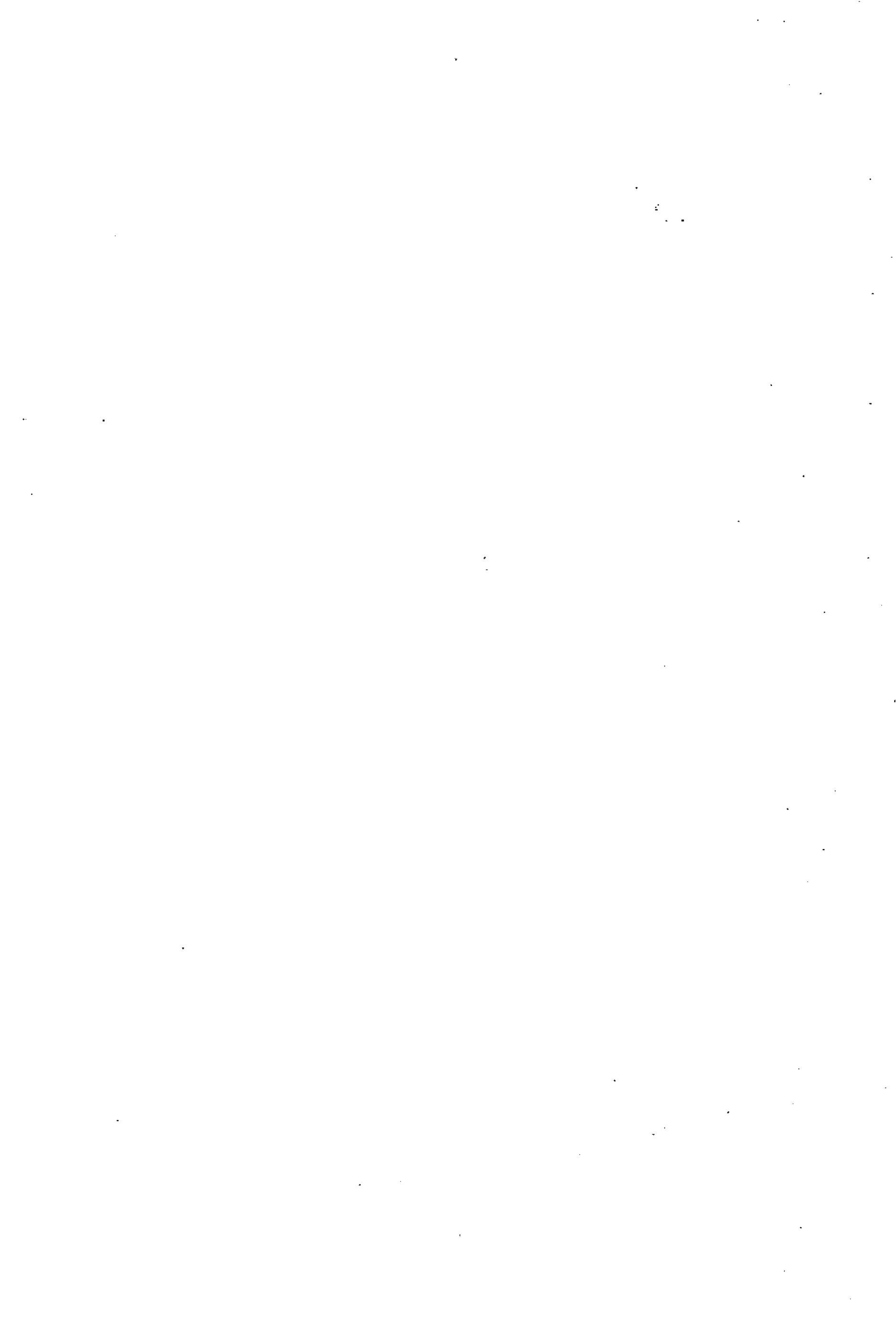
* للتواصل مع المؤلف:

mosalah79@yahoo.com

* * *



الفهرس



سبحة.. وكاس



محمد صلاح زكريا

وهبتها حبي، و انا لا ادري ان القمر ارخى سدوله و رحل بلا امل... ضاقت به الارجاء وأغلقت الأركان..

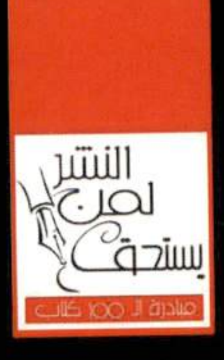
حتى بنت السلطان، خاصمت نافذتها، ولم تعد تناجى القمر..

من حقه إذن ان يمضى، بلا عنوان... لحظتها عشت الحب، لأرى شماتة الألوان، واستهزاء أشباه الزمان!..

ما ذنب من أحب في زمن بلا قمر؟.. هل للحب ميعاد؟!.. سافرت بفؤادي، أحمل الأمل والرجاء.. تطاردني رياح الفراق.. من كأس عنترة و قيس، أواصل رحلتي.. رغم الأهواء.. وأرى الهوى يترنح، أعطيه قبلة الحياة..

لكنه ما زال في انتظار القمر..

أو القدر!!



مع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب -خاصة بعد ثورة يناير العظيمة- وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر، أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة، خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات، وإحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع، وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري، كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر، التي تخيف طرفيها - الناشر والقارئ - على حد سواء..

وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت - وبشدة - اقتصاديا، ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال هذا العام، فكرنا في حل بديل، هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرا، إيمانا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية، وحرصا منها على استمرارها في دورها، وإيمانا منها - كما عهدتموها- بالشباب الموهوب..

ليصبح بين أيديكم، هذا الكتاب.



